

## الفصل السادس

### شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

#### شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا في كتاب العصر العباسي الأول أن حزب الخوارج الذي كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خمد أواره، ولم تبق منه حينئذ إلا أسراب قليلة حتى إذا كان في هذا العصر العباسي الثاني كادت تجف هذه الأسراب، ولم يعد من يعلن أنه خارجي أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكونوا حزباً أو يعملوا على نشر دعوة، إنما هي أفكار قد تعن لشخص، وقد يتبناها، ولكن دون أن يحمل من أجلها السلاح ودون أن يتغنى بها شعراً، غلاما كان من صاحب الزنج فإنه مزج في دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع، إذ كان يستحل قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعاً كفاراً ينبغي استئصالهم، بالضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة. ولكن حتى هذه الحركة الثائرة حركة الزنج لا نستطيع أن نسميها حركة من حركات الخوارج، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيعية ناسباً نفسه إلى فاطمة الزهراء كذباً وافتراء. وكأنما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذي جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوي.

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخدم في هذا العصر، بل لعلها ازدادت اشتعالاً، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين في الحجاز وفي طبرستان وشرقي الدولة، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرمي بقذائفه وشعله على العباسيين. وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين، بل لقد كانت كثرتهم الغامرة تقف معهم؛ لأنهم أصحاب الدولة وفي أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كيلاً، فكان طبيعياً أن يكثر مداحهم ودعاتهم، بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يظهرون غير ما يبطنون، فيمدحون هذه الخليفة المعتدل الذي لا يحمل على البيت العلوي ولا يضطغن مثل المنتصر، وكان منهم المتحامل المبغض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر، وقد مر بنا أمره بحرث قبر الحسين ومحو أرضه ومنع الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه في النجف، وغدا آل أبيي طالب في محنة عظيمة طوال عهده يخافون

على أنفسهم من القتل أو من الحبس. وتقرب إليه غير شاعر من مثل علي بن الجهم بشتم علي رضي الله عنه كما أسلفنا، إما نصاً وإما تعريضاً كقول الجماز أحمد ندمائه<sup>(١)</sup>:

يعة إلا خلتين

ليس لي ذنب إلى الشد

ن وحب العمرين

حب عثمان بن عفا

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ملوحاً بأنه من أهل السنة، وأنه على مذهب المتوكل في التسنن ومقت الشيعة. وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كي يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حقاً للخلافة، ملوحين في وجوه العلويين ومن يقفون معهم من الشيعة. وعرف الشعراء فيه هذا الجانب، فاستغلوه يقدمهم ابن الجهم ومروان بن أبي الجنوب وغيرهما كثيرون، وأتوه من كل فج من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية. وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشبل البرجمي، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتاً استهلها بقوله<sup>(٢)</sup>:

واتركي قول المعلل

أقبلي فالخير مقبل

صرت وجه المتوكل

وثقي بالنجح إذ أب

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت، فانصرف بثلاثين ألف درهم. وكان يغدو ويروح وفي ركابه البحرني يمدحه في كل مناسبة مشيداً بأبائه ووراثته لنور النبوة وإمامته وعهده وعدله، ويتحول إلى ما يشبه داعية له في كل عمل من أعماله. ومن طريف ما نقرأ من مدائح للمتوكل عنده غيره مدحه لإبراهيم بن المدبر وكان لا يزال شاباً يعمل في دواوينه، فمرض المتوكل ثم عوفي، ودخل الناس على طبقاتهم يهنئونه بالإبلال من مرضه، ودخل إبراهيم، ولم يكذب بين يديه حتى أنشده قصيدة يهنئه فيها بسلامته مهلاً مبتهجاً مع المبتهجين المهللين، وفيها يقول<sup>(٣)</sup>:

ض العود ذا ورق نضير

اليوم عاد الدين غ

ن ويا ضياء المستنير

يا رحمة للعالمين

ظهرت له بهدى ونور

يا حجة الله التي

(١) معجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي) ص ٣٧٥.

(٢) الأغاني (طبع دار الكتب المصرية) ١٩٣/١٤.

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١١٤/١٩.

والمبالغة واضحة وكأننا بإزاء غال من غلاة الشيعة يمدح إمامه، وقد لعبت فيما بعد كلمة "حجة الله" دوراً كبيراً في المذهب الإسماعيلي الفاطمي. وكان طبيعياً أن يطرب المتوكل حين سمع القصيدة، فيأمر له بخمسين ألف درهم ويتقدم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى أن يوليه عملاً جليلاً ينتفع به. وكان كثيرون يسيل لعابهم لمثل هذا العطاء الجزيل، حتى كبار الكتاب من أمثال إبراهيم بن العباس الصولي، وكانوا ما يزالون ينتهزون الفرص من الأعياد والمناسبات، وكان من أكبر هذه المناسبات عقد المتوكل البيعة لولاية العهود أبناءه الثلاثة: المنتصر فالمعتز فالمؤيد، وصنع لذلك موكباً ضخماً، سار فيه مع أولاده حتى نزل القصر الذي سماه العروس وأذن للناس فدخلوا إليه، فلم تكاملوا بين يديه وقف الصولي بين الصفيين، واستأذن في الإنشاد فأذن له فقال<sup>(١)</sup>:

أضحت عرى الإسلام وهي منوطة	بالنصر والإعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة	كنفوا الخلافة من ولادة عهود
قمر توافت حوله أقماره	فحففن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء واكتفت بهم	فسعوا بأكرم أنفس وجدود

فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاية العهود بمثلها. ويتولى بعده المنتصر، فيرفع المحنة عن آل أبي طالب ويدفع عنهم الأذى ويرد عليهم الأمن، ويتغنى شعراؤه بهذا الصنيع، يتغنى البحري ويتغنى غيره، ويتغنى شعراء الشيعة من أمثال يزيد<sup>(٢)</sup> بن محمد المهلبى. وسرعان ما يخلفه المستعين، وفيه يقول أحمد بن يحيى البلاذري<sup>(٣)</sup>:

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته	يظن لظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيته ولبسته	نعم هذه أعطافه ومناكبه

ويتولى الخلافة بعده المعتز، وكان شاعراً مجيداً، ولو امتدت به الخلافة لكان مثل ابنه عبد الله في خصب ملكاته الشعرية، وقصده كثير من الشعراء، ليأخذوا جوائزهم أو ليصبحوا من ندمائه

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٦٤/١٠ وانظر الطبري ١٨١/٩ والديوان (طبع لجنة التأليف والترجمة

والنشر) مع مجاميع شعرية أخرى ص ١٣١.

(٢) مروج الذهب ٥٢/٤.

(٣) النجوم الزاهرة ٩٨/٣.

إذ كان صاحب لهو وقصف، فلم يكد يتسلم مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهناً أبو علي البصير قائلاً<sup>(١)</sup>:

آب أمر الإسلام خير مآبة  
مستقراً قراره مطمئناً  
وغدا الملك ثابتاً في نصابه  
أهلاً بعد نأيه واغترابه

وتطول مدة المعتمد نحو عشرين عاماً أو تزيد سنوات، وكان فيه لهو وانغماس في الترف، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال، كفهها أخوه وولي عهده الموفق أشد بني العباس شكيمة لعصره وأحزمهم بكل معاني الحزم وأروعه. وكأنما اختاره القدر في عصر أخيه لينازل الزنج وصاحبهم في ثورتهم العارمة يقضي عليها قضاء مبرماً. فكان طبيعياً أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولي عهده وأمجاده الحربية في وقائعه مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفار من جهة ثانية، وقد صورنا هذه الوقائع في غير هذا الموضوع، وفي وقائعه مع الصفار يقول ابن فيد الطائي مصوراً انتصاره<sup>(٢)</sup>:

وولي عهد المسلمين موفق  
يا فارس العرب الذي ما مثله  
بإله أمضى من شهاب ثاقب  
في الناس يعرف آخر لنوائب

وتولى الخلافة المعتضد، وكان مثل أبيه شجاعة وفروسية حزمًا، ومر بنا أنه كان من مداحه ابن الرومي فهو يهنئه في الأعياد المختلفة وينتهاز كل مناسبة لينظم فيه أشعاره مهلاً ممجداً. ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه، كما أسلفنا، وكن قرّة عينه، وله صنع أرجوزته التاريخية التي صور فيها عهده تصويراً بارعاً، وفيها أصلى خصوم العباسيين ناراً حامية، مصوراً بشاعة ثورتي الزنج والقرامطة، وكأنما جرد من فسه محامياً أمام أبناء عمومته العلويين مدافعاً عن بيته وحقوقه في الخلافة، ومر بنا ذلك في حديثنا عنه. ويتولى المكتفي بعد أبيه المعتضد ويسبغ عليه ابن المعتز مدائحه، كما يسبغها أبو بكر الصولي وغيره. ثم تكون خلافة المقتدر وتأخذ الدولة في الانتكاس. ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلباً للنوال من أمثال ابن بسام<sup>(٣)</sup> وغير ابن بسام. ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر طالما مدحوا خلفاءه، وهم مروان بن أبي الجنوب وعلي بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي.

(١) مروج ٨٢/٤.

(٢) طبري ٥٢٠/٩.

(٣) أنظر أخبار الرازي والمتقي في كتاب الأوراق للصولي.

## مروان بن أبي الجنوب أبو السمط<sup>(١)</sup>

حفيد مروان بن أبي حفصة شاعر الخليفة المهدي، اصل موطنهم اليمامة، وقد سلك مسلك جده في الطعن على آل علي بن أبي طالب، فكان طبيعياً أن يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حنقه على أبناء عمه العلويين ما صورناه في غير هذا الموضوع. ويبدو أن الواثق لم يكن يعجب به ولا بشعره فنفاه إلى اليمامة، فلما ولي الخلافة بعده المتوكل بعث إلى ابن أبي دؤاد مستشاره بقصيدة مدحه بها، ذم فيها ابن الزيات وزير الواثق ذمّاً قبيحاً، وكان المتوكل قد قبض على أمواله وعذبه في تنور من خشب ملأه بمسامير من حديد حتى مات فقال فيه مروان:

وقيل لي الزيات لآقي حمامه      فقلت أتاني الله بالفتح والنصر  
لقد حفر الزيات بالغدر حفرة      فالقى فيها بالخيانى والغدر

وكان ابن الزيات أول من عمل هذا التنور، وعذب به نفرًا. وما إن صارت القصيدة إلى ابن أبي دؤاد حتى طار إلى المتوكل وأنشده البيتين السالفين، فأمره بإحضاره. فقال له إنه باليمامة، كن الواثق نفاه لمودته لأمير المؤمنين، وعلي دين: ستة آلاف دينار، فقال المتوكل: يعطاها. فأعطيت له، وجيء به إلى سامراء، فدخل على المتوكل وأنشده قصيدة لأميه يقول فيها:

كانت خلافة جعفر كنبوة      جاءت قبلا طلب ولا بتحل  
وهب الإله له الخلافة مثلما      وهب النبوة للنبي المرسل

فأمر له بخمسين ألف درهم. وأخذت هبات المتوكل الغدقة تنثر عليه نثرًا، فهو يغدو ويروح عليه بالمدائح، والمتوكل يسبغ عليه عطاياه، وكان مما أخذ فيه نوالاً كبيراً قصيدته التالية التي أنشدها المتوكل حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة: محمد المنتصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد، وفيها يقول:

ثلاثة أملاك فأما محمد      فنور هدى يهدي به الله من يهدي  
وأما أبو عبد الإله فإنه      شبهك في التقوى ويجدي كما تجدي  
وذو الفضل إبراهيم للناس عصمة      تقى وفي بالوعيد وبالوعد

<sup>(١)</sup> راجع في أخبار مروان وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٥٢/٤، ٨٣ والطبري ٢٣٠/٩ والأغاني (طبعة الساسي) ٣٤/٩ وتاريخ بغداد ١٥٣/١٣ والفهرست لابن النديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ ووفيات الأعيان وخزانة الأدب للبغدادى ٤٤٧/١.

فأولهم نور وثانيهم هدى  
وثالثهم رشد وكلهم مهدي  
فلما أتم إنشادها أمر له المتوكل بمائة وعشرين ألف درهم وخمسين ثوباً وبغلة وفرس وحمار،  
فما برح حتى قال في شكره:

تخير رب الناس للناس جعفرأ  
فملكه أمر العباد تخيراً

حينئذ رد عليه ضياعه التي كان ابن الزيات قد صادرها، وجعل له راتباً في الديوان، ولعل أهم  
من كل هذا المديح أنه دافع بحرارة في جوانب من مديحه عن حقوق العباسيين في الخلافة  
مؤتسباً في ذلك بدده مروان بن أبي حفصة، وائتسى به أيضاً في الرد على العلويين ونقض ما  
يدعونه من وراثة الرسول في الخلافة، غذ هم أبناء السيدة فاطمة الزهراء والعم مقدم على أولاد  
البنات في الوراثة حسب حكم الشريعة. ومن خير ما يصور ذلك عنده قصيدته الميمية التي  
تمضي على هذا النمط:

ملك الخليفة جعفر	للدين والدنيا سلامه
لكم تراث محمد	وبعدلكم تنفي الظلامه
يرجو التراث بنو البنا	ت وما لهم فيها قلامه
والصهر ليس بوارث	والبنات لا تترث الإمامه
أخذ الوراثة أهلها	فعالم لومكم علامه

وهو يشير بوضوح في الأبيات إلى أن مصاهرة علي بن أبي طالب للرسول عليه السلام لا  
توجب له وراثة، كما يشير إلى أن السيدة فاطمة بنت، والبنات لا تترث الولاية على المسلمين ولا  
تحق لها الإمامة، فكيف تورث الإمامة من قبلها؟ والشريعة واضحة في ذلك. وطار المتوكل حين  
سمع القصيدة ابتهاجاً، وقلده اليمامة والبحرين وخلع عليه أربع خلع، وخلع عليه ولي عهده  
المنتصر. وأمر المتوكل له بثلاثة آلاف دينار فنثرت على رأسه، وأمر ابنه المنتصر وسعداً  
الإيتاخي يلتقطانها له دون أن يلتقط هو منها شيئاً إكراماً له، ويقال إنه حشا فمه جوهراً، ومن  
طريف ماله فيه قوله:

تخشى الإله فما تنام عناية	بالمسلمين وكلهم بك نائم
لو كان ليس لهاشم فيما مضى	سلف سواك لقدمت بك هاشم

وقال بعض معاصريه إن المتوكل أعطاه مائتي ألف دينار من ورق (فضة) وذهب وكسوة.  
وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تعلقو  
جائزته جوائزهم، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجي حتى شاعر نابيه مثل علي بن الجهم نراه

يتهاجى معه، ولم يكن مروان يصمت بل كان يبادر أحياناً إلى الهجاء، ويروي أن ابن الجهم قال في فاتحة قصيدة له في المتوكل:

الله أكبر والنبي محمد  
والحق أبلج والخليفة جعفر

ولم يكذب يسمع مروان قوله، حتى أعمل فكره، وبادره يقول له ساخراً منه سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة:

أراد ابن جهم أن يقول قصيدة  
بمدح أمير المؤمنين فأذنا

فقلت له لا تعجلن بإقامة  
فلست على طهر فقال: ولا أنا

وكان يقدم لمدائحه بنسيب رقيق يحيى فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا ويتمنى زوراً لهم أو الإمامة قصيرة. وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب، والشباب وعهده وعهوده، وحبه الماضي، وفيها يقول:

شمس الشباب على اليوم طالعة  
وسوف تغرب إن الدهر ذو غير

إذا الشباب مضت عنا بشاشته  
فما نبالي متى صرنا إلى الحفر

لنا من الشوق أكباد مصدعة  
وأعي كحلت بالدمع والسهر

سقياً ورعياً لأطعان مولية  
فيها خرائد كالغزلان والبقر

ودعتهن وداعاً زادني كمداً  
ما كان إلا كورد الطائر الحذر

وله شعر في المعتز رواه المسعودي في المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره. ولعل فيما قدمنا من أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جده يعني بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة.

### علي<sup>(١)</sup> بن يحيى المنجم

من أصل فارسي أسلم أبوه يحيى على يد المأمون وخص به، ويقال إن جد يحيى أبرسام البزرج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره. وشملته عناية المأمون هو وابنه علي، وتوالى عليهما بره، وأخذ نجم الأسرة في التآلق ببلاط المأمون والمعتصم، وتوثقت الصلة بين علي ومحمد بن اسحق بن إبراهيم المصعبى، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل، ووصفه له وقدمه إليه،

(١) أنظر في حياة علي بن يحيى وأشعاره معجم الأدباء ١٥/١٤٤ ومعجم الشعراء للمرزياني ص ١٤١ والفهرست ص ٢١١ والأغاني (طبعة الساسي) ٩/٢٢ وتاريخ بغداد ١٢/١٢١ ومروج الذهب ٤/١٩١ والنجوم الزاهرة ٣/٧٣.

وأعجب به المتوكل وقربه منه، حتى صار أكبر ندمائه، يساعده في ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار. وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده، ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضاً، وقدمه على جميع جلسائه، وقلده أعمال الحضرة، وأقره المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال. ثم خلص الأمر للمعتز، فكان أول من طلبه لمنادمته على بن يحيى، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله، وقلده الأسواق والعمارات، وقدمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار، وأقطع ضيعة كبيرة. ثم أفضى الأمر على المعتمد، فحظى في عهده حظوة كبيرة، ووصله صلوات سنية، وقلده أعمال الحضرة، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه الموفق حتى نهاية حياته.

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة. وكان ابن المنجم مع طرفه ما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبة، بل قل مع اكتمال خصال المنادمة فيه ومعرفته بضروب الثقافات، حتى قيل إنه طبيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحك، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار، وكان يعد من رعاة الأدب في عصره حتى كان بيته مألفاً للأدباء، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء، ويستخرج لهم منهم الصلوات، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدي إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة، حتى ينفحهم بالنوار السابغ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يحرمون الصلوات من الأدباء. وليس ذلك كل ما يرفع منه، فقد ألهمه تفكيره الصائب أن يستغل الأموال الكثيرة التي كانت تنتثر عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء في إقامة مكتبة ضخمة، مر بنا حديث عنها في غير هذا الموضع، وكان طلاب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبدولة لهم، وكذلك النفقة مهما طالت إقامتهم. وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب في عصره، بل لعله كان أكبر رعاتهما، ولا شك في أن ما عرف عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذي جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صنع مكتبة له يباهي بها معاصريه. ومن تنمة ثقافته أن يذكر له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين، وكتاب أخبار اسحق الموصلي وكتاب الطبيخ، والكتابان الأخيران يتصلان بمنادمته لاتصالهما بأخبار المغنين وبتذوق الأطعمة.

وكان شاعراً، وله شعر كثير كما يقول ياقوت في ترجمته، غير أنه لم يكن يعجب بشعره، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء في سياق أخباره، لو أنه صنع لاطلعنا بوضوح على

أشعاره في الخلفاء والوزراء. ولعل أول شعر قاله ما نظمه في رثاء المأمون ومديح المعتصم، مما رواه ياقوت في ترجمته، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة في المتوكل ومن تلاه من الخلفاء، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله في المعتز حين استولى على مقاليد الخلافة:

بدا لابساً برد النبي محمد  
بأحسن مما أقبل البدر طالعاً  
سمي النبي وابن وارثه الذي  
به استشفعوا أكرم بذلك شافعاً  
وكل عزيز خشية منه خاشع  
وأنت تراه خشية الله خاشعاً

وهو شعر متوسط، شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة، ولذلك كان يستساغ في وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونواديرهم وفكاهاتهم. وهكذا دائماً شعرهم، فهو إنما يعجب في لحظة قوله، ولذلك كان يروى مع أخبارهم. ومن هذا الطراز نفسه قصيدته في الفتح بن خاقان التي أنشد ياقوت منها بعض أبياتها، وله وراء ذلك أشعار يصور بها سمو نفسه، لعل من أطرافها قوله:

سيعلم دهري إذ تتكر أنني  
صبور على نكرانه غير جازع  
وأني أسوس النفس في حال عسرهما  
سياسة راض بالمعيشة قانع  
كما كنت في حال اليسار أسوسها  
سياسة عف في الغنى متواضع  
وأمنعها الورد الذي لا يليق بي  
وإن كنت ظمآنًا بعيد الشرائع

فهو يصور نفسه صابرة لا جزع مهما ادلهمت الخطوب، كما يصور نفسه لا تهون في حال عسر أو شدة، بل تتقبلها راضية قانعة كما تقبلت اليسر قبلاً مزدريه مغرباته في تواضع غير مسف دون أي إحساس باستعلاء، وإنه ليمنع نفسه الإمام بأي ورد دنى مهما كان ظمآن، كاظماً لظمنه، محتملاً لحرارة عطشه. وله في الطيف:

بأبي والله من طرقتا  
كابتسام الصبح إذ خفقتا  
زادني شوقاً برؤيته  
وحشا قلبي به حرقتا  
زارني طيف الحبيب فما  
زاد أن أغري بي الأرقا

وكأننا أراد أن يحاكي البحثري في كثرة أشعاره التي نظمها في الطيف. ولا شك أنه من طراز متوسط، فأجنحته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به في الأفق الذي يحلق فيه البحثري. ومرت بنا أنفاً رعايته للأدباء والشعراء، مما جعل غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه، مصوراً كرمه الفياض من مثل قول أبي هفان:

لربيع الزمان في الحول وقت  
وابن يحيى في كل وقت ربيع

رجل عنده المكارم سوق

يشتري دهره ونحن نبيع

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عاماً بكاه كثير من الشعراء، وفي مقدمتهم ابن بسام، وقد أنشدنا في غير هذا الموضوع مرثيته له، وهي مرثية جيدة.

### أبو بكر الصولي<sup>(١)</sup>

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي من بيت كتابة وشعر، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية، مثل عمه إبراهيم بن العباس، وكان أكبر كاتب في دواوين المتوكل. وهما من أسرة صول تكين أحد أمراء جرجان. كان قد ظفر به يزيد بن المهلب في بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج، فأسلم على يديه، ولزمه وأصبح من رفاقه، حتى إذا ثار يزيد على بني أمية في أوائل القرن الثاني للهجرة ثار معه عليهم حارياً في صفوفه، ودارت عليهما معاً الدوائر فسقطا قتيلين في ميادين المعارك. وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره في بغداد: أبي داود السجستاني وثلعب والمبرد، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة، وتدل صلته بالأخيرين على معرفته بعلوم الأوائل. وكان يحسن لعبة الشطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها في زمنه. وأكب على معارف عصره إكباباً منقطع النظير، وجعله هذا الإكباب يعني بجمع الكتب، وما زال يجمعها حتى كون لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه، كما اسلفنا، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان، غذ جعل لكل صف من الكتب لوناً، فصف أحمر وصف أخضر إلى غير ذلك. وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته في لعبة الشطرنج أبواب الخفاء منذ عهد المعتضد، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدائحهم، وهم ينثرون عليه أموالهم، مما جعله يعيش معيشة رغدة. وكلفه المقتدر تعليم ولديه الراضي وهرون، فأحسن تعليمهما، وخرج أولهما شاعراً وأديباً لسناً، حتى إذا ولي الخلافة اتخذ نديمه ومستشاره. ويزور عنه الخليفة المتقي بعده فيترك بغداد إلى بجكم التركي حاكم واسط سنة ٣٢٩ ويتوفى المتقي سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة، فيتركها على البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبي نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكفي عرف تشييعه لآل علي بن أبي طالب فطلبه، وفر منه إلى البصرة.

(١) أنظر في أخبار أبي بكر الصولي وأشعاره الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٤٢٧/٣ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٣١ وديوان المعاني للعسكري (أنظر الفهرس) وذيل زهر الآداب ص ٢٤٥ ومعجم الأدباء ١٠٩/١٩ ووفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٢٩٦/٣ وله في كتابه أخبار الراضي والمتقي أشعار كثيرة.

وقد صنع الصولي دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين في مقدمتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومي وابن المعتز، وصنف كتباً جليلاً في أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتاب والرؤساء. ومن كتبه النفيسة كتابه "الأوراق" وقد نشر منه ثلاثة أجزاء: جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفين: الراضي والمتقي. ونشر له مصنفه أدب الكتاب وكتاب أخبار أبي تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه، ولعل في ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسي، وأنه كان يقف في دقة على أساليبه ومذاهبه؛ إذ نبه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر ولام من يعيونه ببعض أبيات فاتة التوفيق فيها متناسين تحليفه في آفاق الشعر العليا التي تتقطع من دونها الرقاب.

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولي شاعراً ناقداً عالماً، وكان مثقفاً ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة في عصره. ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التي كان ينشدها الراضي في حفلات القصر وفي المناسبات المختلفة دونها بنفسه في أخباره، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية. وسقطت من يد الزمن مدائحه في المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودي أنه أنشدها في قصيدة مدحه بها، وفيها يقول:

لأمير المؤمنين المعتضد                      بحر جود ليس يعدوه أحد

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتفي سوى قصيدة واحدة، وقد اضطر - كما يقول - إلى أن ينشدها المتقي حين استولى على مقاليد الخلافة، وكان قد طلب إليه أن ينشده عاجلاً قصيدة يهنئه فيها بالخلافة، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتقي بدلاً من كلمة المكتفي، وفيها يقول:

مددت على الإسلام أكناف نعمة                      لأعطافها ظل عليه ظليل

ولولا بنو العباس عم محمد                      لأصبح نور الحق فيه خمول

لكم جبلاً الله اللذان اصطفاهما                      يقومان بالإسلام حين يميل

نبوته ثم الخلافة بعدها                      وما لهما حتى اللقاء حويل<sup>(١)</sup>

وكل ما في القصيدة من صياغة وخيال يدل على أن الصولي كان يتكلف هذا المديح تكلفاً. حقاً هو يباليغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية، ولكن نحس أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية، وبالمثل ما رواه له عريب في ذيل الطبري من مديح للمقتدر، وحتى الراضي تلميذه الذي أغدق عليه عطاياه حتى لكأنما تحولت إلى نهر فياض نجد في

(١) حويل: تحول .

مدائح له نفس هذا الطراز المتكلف. وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة، وقد تطول طولاً مسرفاً، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على مردويج الثائر بأصبهان:

أنس الله بالخليفة ملكاً	موحش الربع واهن التأسيس
يا نسيم الحياة أضحكت دهرأ	كان لولاك دائم التعبيس
مردويج بسيف حظك مقتو	ل فأهون بذاك من مرموس <sup>(١)</sup>
قصفته رياح أيامك الغر	فأخمدن منه نار المجوس
وتولت بمأتم الدهر أيا	م أتنتا تجر ذيل العروس

والتكلف واضح في الأبيات، والصور لا تقع في مكانها، فالخلافة كانت موحشة وكانت واهنة، والخليفة نسيم الحياة، نسيم أضحك دهرأ كان عبوساً قمطيرياً ومردويج لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضي الغراء، وخلعت الأيام سواد الحزن، وجاءت تجر ذيول الفرح. كلام متلاصق، وليس شعراً حياً نابضاً بروح، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التي أنشدها في مجلسه لسنة ٣٢٧ وفيها يقول:

خليفة أكملت فضائله	ففرعه طيب ومحتده
تعبد المجد فهو يملكه	طارفه عنده ومثلده
قد رضى الراضي الإله لإصد	لاح زمان سواه مفسده
فهو بتقويضه الأمور إلى اللد	ه بحسن التوفيق يعضده

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تكلف يتضح في بناء الشطر الثاني من البيت الأول على سابقه، كما يتضح في جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استنذله، والجناس بين رضى والراضي شديد التكلف، وكلمه سواه نابيه في مكانها غير مستقرة والصياغة في البيت الرابع تتنافر أجزاءها تتنافر شديداً. ومن هذا الطراز نفسه عزائه للراضي في أخيه هرون، وهو يستهله على هذا النمط:

تعز يا خير الوري عن أخ	لم يشب الإخلاص باللبس
كان صديقاً وافراً وده	صداقة الأنفس والجنس
تعز عنه بنبي الهدى	محمد إذ حل في الرسم

(١) مرموس: من الرسم وهو القبر .

والقصيدة مزيج من الندب والتأبين والعزاء، مع أنه افتتحها بطلب التعزي والتسلي، فكان ينبغي أن يقصرها على العزاء لا أن يندب في هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما في هذه الأبيات، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبناً له كما في أبيات تالية. ونحس نبواً شديداً في البيت الثاني إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الود، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق، وأيضاً فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس، والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حل في الرمس خلو من رهافة الحس أو من الحس الأدبي الدقيق. وقد يكون مصدر التكلف في العزاء والمديح جميعاً أنه كان موالياً للعلويين كما قال بعض من ترجموا له، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه، فقلبه وروحه مع آل أبي طالب، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يصدقون عليه من صلوات ثرة. وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائح لبني العباس ونظرنا فيما روي له من غزل لقيننا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله:

أحببت من أجله من كان يشبهه  
وكل شيء من المعشوق معشوق  
حتى حكيت بجسمي ما بمقلته  
كأن سقمي من جفنيه مسروق

وقوله يصف الدموع في ساعة الوداع، وهي تسقط بيضاء سقوطاً متتابعاً على خدود حمراء حمرة الورد في الربيع:

لو كنت يوم الوداع حاضرننا  
وهن يطفئن لوعة الوجد  
لم تر إلا الدموع جارية  
تسقط من مقلة على خد  
كأن تل الدموع قطر ندى  
يقطر من نرجس على ورد

وكان ينفذ في أثناء ذلك إلى كثير من الصور النادرة الغريبة التي تنبئ عن شاعرية جيدة من مثل قوله في بيان إعجابه بغناء إحدى القيان:

وغناء أرق من دمعة الصد  
ب وشكوى المقيم المهجور

وله في وصف أرمد ومحاولة تعليل رمده بعله غريبة لا تقع إلا في عقل واهم بعيد الخيال بيتان كان القدماء يعجبون بهما إعجاباً شديداً إذ يقول:

يكسر لي طرفاً به حمرة  
قد خلط النرجس في ورده  
ما احمرت العين ولكنه  
يكحلها من وردتي خده

وكان هذه الأبيات وما وراءها من أبيات في الخمر لم نروها كانت تصدر عن نفسه، مما جعل صياغتها سوية وأخيلتها بديعة بعيدة الغرابة في بعض الأحيان. وله بجانب ذلك حكم يصور فيها عبر الدهر ومواعظه من مثل قوله:

يا راكضاً يسرع في ركضه

يابانياً والدهر في نقضه

من طوله طوراً ومن عرضه

يلهو وأيدي الموت أخاذه

فالإنسان يبني، ولا يعرف أن داره ستتقض بعد أيام، بل هو نفسه سينقضه الدهر ويحيله ضعفاً من بعد قوة، يوهن عظمه وينحل جسمه، ويحني ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه، حتى يصبح أنقاضاً خالصة، وكأنما الدنيا أضغاث أحلام. والصولي في كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال.

## شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خمدت دعوتهم وحروبهم منذ العصر العباسي الأول، وعم هذا الخمود في هذا العصر التالي بحيث لم يعودوا يكونوا حزب معارضة حقيقياً للدولة العباسية، وقد نهض بتلك المعارضة في أحد صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويعلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم في وجه الدولة، وكانت تلقاهم بجيوشها وقلما كتب لهم النصر، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخدم حتى تتشب حرب أخرى ويشتد أوارها وبذلك ظلت المعارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر. وتبته لذلك المتوكل، فرأى أن يقف زيارة الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة، محرصاً شعراءه على النيل منهم ومن آل علي عامة، وأمر - فيما أمر - بحبس الطالبين في سامراء<sup>(١)</sup> وأخذ ينزل بهم نكالا شديداً، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم في الحجاز على نحو ما سنرى عما قليل في حديثنا عن محمد بن صالح العلوي.

ولابد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذاهبهم التي عرفناها في العصر العباسي الأول كانت لا تزال حية، فكان كثيرون يؤمنون بالنظرية الزيدية، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الأثنى عشرية، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً، واستغلها القرامطة في ثورتهم، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم، وبذلك كان ينبغي أن ننحيم عن الشيعة. وملاحظة ثانية هي أن المذهب الشيعي الذي غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية، وكان يجعل التقية أصلاً من أصوله، فكان يعمل سراً وقلماً عمل جهراً، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقية، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلباً لما في أيديهم من أموال، وهم يسرون لهم كرهاً وحنقاً، ومن هنا كنا كثيراً ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذاك ويقال إنه كان يتشيع. وهم أكثر من أن نسميهم أو نحصيهم. وملاحظة ثالثة هي أنه قيل شعر شيعي كثير في العصر، وهو موزع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يشدون الشعر وينظمونه، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوي الأنف ذكره والحماني وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة، ومنهم محمد بن علي بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن علي بن أبي طالب، وكان في أيام المتوكل، وهو يكثر من الافتخار بأبائه وينسبه الطاهر إلى الرسول الكريم، ويردد في أشعاره نظرية بيته العلوي في الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى

(١) أغاني (ساسي) ١٤١/١٩.

بها إلى جده على حين نزل بغدير خم إذ قال له: "أنت منى بمنزلة هرون من موسى" وإلى ذلك يشير بقوله:

على شهاب الحرب في كل ملحم	وجدى وزير المصطفى وابن عمه
وأفضل زوار الحطيم وزمزم	وأول من صلى ووحد ربه
فنادى برفع الصوت لا بتهمهم	وصاحب يوم الدوح إذ قام أحمد
كهرون من موسى النجي المكلم	جعلتك مني يا علي بمنزل

وما نصل إلى سنة ٢٥٠ في عصر المستعين حتى تثور ثائرة الشعراء الشيعيين، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة في الكوفة يحيى بن عمر الطالبى، وكان قد تورع عن أخذ أموال الناس ظلماً وأمر بحقن الدماء، وكان ورعاً زاهداً ناسكاً، فتبعته ألوف، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوبي العراق. وتمزقت جموعه، وخر قتيلاً، وحمل رأسه إلى بغداد. وضج الناس لمقتله وصلب رأسه، ويروي أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانيمهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفري، وقال له: أيها الأمير إنك لتنهأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حياً لعزى به، فلم يجبه الأمير، فولى وجهه خارجاً، وهو يقول<sup>(١)</sup>:

إن وتراً يكون طالبه اللد      ه لوتر نجاحه بالحرى

ونصب له الشيعة مأتماً كبيراً ناح فيه الشعراء وبكوا طويلاً، ومرت بنا في غير هذا الموضوع مرثية ابن الرومي له، وهي صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولاً ذمياً، واصفاً لهم بالظلم والطغيان هم وولاتهم، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيى ويدمر خصومه تدميراً. وكثر رثاؤه وندبه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبي طاهر<sup>(٢)</sup>:

إذا ما مضى آل النبي فودعوا	سلام على الإسلام فهو مودع
وأضحت عروش المكرمات تضعضع	فقدنا العلا والمدد عند افتقادهم
من الدين والإسلام فالدار بلقع	لقد أقفرت دار النبي محمد
وبدد شمل منهم ليس يجمع	وقتل آل المصطفى في خلالها

(١) الطبري ٢٧٠/٩ والمرج ٦٤/٤.

(٢) مرجع الذهب ٦٤/٤.

وسرعان ما يثور في نفس السنة بطبرستان الحسن بن زيد العلوي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك كثيرة، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلي نداء ربه لسنة ٢٧٠ وطبيعي أن يصبح مقصداً للشعراء، وأن يتغنى غير شاعر باسمه في المناسبات المختلفة، ونجد شاعراً من جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين افتصد بقوله<sup>(١)</sup>:

هيئت عندنا لفصد الإمام

قد رأينا مجالساً عطرات

ضع عندي في مهجة الإسلام

إنما غيب الطبيب شبا المبد

دم خير الورى وأعلى الأنام

سرت الأرض حين صب عليها

والنزعة الشيعية واضحة في الأبيات. وكان من الشعراء حينئذ من يستر تشيعه مآكراً برجال الدولة العباسية، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه، لا لشيء إلا لأنهم يخاصمون آل علي، وربما اتخذ لذلك وسائل مآكرة، وممن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامة الدقيقي الكوفي، إذ قال الرواة إنه استنفذ شعره في هجاء رجال الجيش العباسي، يرميهم بالأبنة، وصنع في قوادهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنية، رامهم فيها بالقبائح الشنيعة. وما زال هذا شأنه، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلح القائد التركي في طريقه إلى حرب صاحب الزنج، فدلّه عليه قوم من أهل بغداد، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرفض، فضربه مفلح بالسياط حتى تلتفت نفسه ومات لسنة ٢٦٠. وكان قد خلف الحسن بن زيد على طبرستان حين توفي أخوه محمد، واستقام أمره فيها وعظم شأنه، فدخل ديار الديلم ودان تله، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جهز جيوشاً كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان، فلقبته جيوش إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان من قبل العباسيين، ودارت عليه الدوائر، وأتخن بالجروح، وتوفى، فدفن بباب جرجان، يقول المسعودي: وقبره هناك معظم على اليوم. ويبدو أنه كانت له بطانة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبي القائل فيه<sup>(٢)</sup>:

علا علوا لا يساويه أحد

إن ابن زيد كل يوم زائد

أو زجر البحر إذن صار زيد

لو صال بالطود إذن أذله

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧.

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٧.

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحلواني، نراه يغلو في مديحه، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أئمتهم من هالة قدسية ترفعه عن البشر درجات، وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

لا تقل بشرى وقل لي بشريان	غرة الداعي ويوم المهرجان
ابن زيد مالك رق الزمان	بالعطايا والمنايا والأمانى
خلقت كفاه موتاً وحياة	وحوت أخلاقه كنه الجنان
مخفف فكرته في كل شيء	فهو في كل محل ومكان
يتتأى لفظنا عنه ولكن	هو بالأوصاف في الأذهان دان
كافر بالله جهراً والمثاني	كل من قال: له في الخلق ثان

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا في الدعوة الشيعية خطوات فسمى نفسه الداعي، وأخذ يوحى إلى الشعراء أن يسبغوا عليه صفات إلهية، فهو ظاهر في العيان، وهو مخفف في كل مكان، وهو لا تحده الألفاظ، وإنما تقربه الأوصاف وليس له ند ولا شبيه، وكافر بالله والمثاني السبع أو القرآن من يقول له في الخلق ثان. ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين، وهم محمد بن صالح العلوي والحمامي والمفجع البصري.

### محمد بن صالح العلوي<sup>(٢)</sup>

من فتيان البيت العلوي وشجعانه وشعرائه، امتعض لبيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطه وغضبه، وما كان من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه علي بالنجف. وكان موطنه سويقة في بادية الحجاز كان ينزلها مع أسرته من الحسينيين أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك، وتصادف أن حج بالناس في نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره، وكان البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسودين أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم. وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقيدهم وقتل نفراً منهم وأخرب سويقة وحرب منازلهم بها واستأصل كثيراً من نخلها وأثر فيها آثاراً سيئة، وحمل محمد بن صالح فيمن

(١) مروج الذهب ٢٥١/٤.

(٢) أنظر في محمد بن صالح الأغاني (طبع دار الكتب المصرية) ٣٦١/١٦ ومقاتل الطالبين للأصبهاني (طبعة الحلبي) ص ٦٠٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠.

حمل منهم إلى سامراء، فحبس ثلاث سنوات، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له، وذلك أنه نظم أبياتاً جيدة يعزي فيها نفسه عن حبسه، ويتجمل بالصبر قائلاً:

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه	وتشعبت شعباً به أشجانه
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى	برق تألق موهناً لمعانه
فدنا لينظر كيف لاح فلم يطق	نظراً إليه ورده سجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضاوعه	والماء ما سحت به أجفانه
ثم استعاذ من القبيح ورده	نحو العزاء عن الصبا إيقانه
ويدا له أن الذي قد ناله	ما كان قدره له ديانه

والشعر جزل مصقول، والشاعر يبث في أوائله حنيناً لأيامه الماضية وكأنها عهود هوى وحب سقطت منه، وينظر إلى البرق متطلعاً لليوم الذي ترد إليه في حرته، فيعنف به السجان، ويحس كأن نار الوجد اندلعت في ضلوعه ظمناً إلى أهله وموطنه. وتسح الدموع وتتهل لا تجف، ويرده إيمانه ويقينه، فيستلم للقضاء محزون الفؤاد شجيه. وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتح بن خاقان ومغنى المتوكل بنان، ويصنع بنان فيها صوتاً يلحنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر واللحن ويسأل عن قائله، فيذكر له، ويكلمه الفتح في أمره وما يزال يرقق قلبه حتى يعفو عنه، غير أنه يشترط أن يظل عند الفتح وفي يده وألا يبرح سامراء حتى لا تحدثه نفسه بالعودة إلى الثورة. وترد إليه حرته فيمدح المتوكل ويغشق عليه من صلاته، كما يمدح المنتصر. ونراه يببالغ في النقية من المتوكل فلا يكتفي بمديح له عام، بل يسوق الدليل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة، يقول:

يابن الخلائف والذين بهديهم	ظهر الوفاء وبان غدر الغادر
وابن الذين حووا تراث محمد	دون الأقارب بالنصيب الوافر
نطق الكتاب لكم بذاك مصدقاً	ومضت به سنن النبي الطاهر

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره في سورة الأنفال: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) يريد أن العباسيين مقدمون في وراثة الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام، لأن العم يتقدمهم في الميراث كما تنص على ذلك شريعة الإسلام في القرآن الكريم، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة. ولم يتورط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق

بالجوارى والإماء، فقد كان يكلف بزوجه وحدها، وكانت تحتل قلبه بجمالها، ويشغف بها شغفاً شديداً وفيها يقول:

لمعمر حمدونة إني بها	لمعمر القلب طويل السقام
مجاز للقدر في حبها	مباين فيها لأهل الملام
جشمني ذلك وجدي بها	وفضلها بين النساء الوسام
زينها الله وما شأنها	وأعطيت منيتها من تمام

وكان جميل المحضر حلو الحديث رقيق الشائل، فانعقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء، فق مقدمتهم سعيد بن حميد أحمد كتاب الديوان المجيدين وممن كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة، وكان محمد بن صالح يمنحه وداً حقيقياً وفيه يقول:

أصاحب من صاحبت ثمت أنتى	إليك أبا عثمان عطشان صاديا
وكنا إذا جنناك لم نبع مشرباً	سواك وروينا العظام الصواديا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقاءه يبلغ منه عظامه تصوير جيد، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد في الدواوين يوليه فضلاً كثيراً، وانعقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كان يمضيان كثيراً من الليالي والأيام معاً لا يفترقان، وله رائية طويلة في مديحه، وفيها يقول:

أخ واساك في كلب الليالي	وقد خذل الأقارب والنصير
فإن تشكر فقد أولى جميلاً	وإن تكفر فإنك للكفور

وله مقطوعة يصور فيها جوارى يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها، ويخال كأنما سينفخ هذا الجمال الفاتن في العظام الهامدان، فتعود مرة ثانية على الحياة الدنيا، يقول:

رايت بسامرا صبيحة جمعة	عيوناً يروق النظارين فتورها
تزور العظام الباليات لدى الثرى	تجاوز عن تلك العظام غفورها
فلولا قضاء الله أن تعمر الثرى	إلى أن ينادي يوم ينفخ صورها
لقلت عساها أن تعيش وأنها	ستتشر من جرا عيون تزورها

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية محمد بن صالح العلوي الفذة، ويظله عصر المنتصر فيصيبه فيه جدري ويلبي نداء ربه، ويرثيه غير صديق باكياً خصاله الحميدة.

## الحماني العلوي<sup>(١)</sup>

سمى الحماني نسبة إلى حي بالكوفة نشأ وعاش فيه؛ وهو علي بن محمد بن جعفر العلوي، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة في المدينة لأوائل عصر المأمون قبل تحوله من خراسان إلى بغداد، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تتجح، وحمل إلى بغداد، ونفي منها إلى خراسان، فنزل بساحة المأمون هناك، وسرعان ما وافاه الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديه، فاشترك في حمله حتى نزوله في لحدّه، وكان مما قال: هذه رحم مجفوة منذ مائتي سنة.

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة، وبها نشأ ابنه علي، وعنيت الأم والأسرة بتتقيفه، فلم يحسن صنع الشعر فحسب، بل أحسن صنوفاً من الآداب وعلوم الشريعة، مما جعل العلويين في تلك البلدة يختارونه نقيبهم ومدرسهم ولسانهم، كما يقول المسعودي. ونمى إلى المتوكل أن في داره سلاحاً وأن الشيعة يجتمعون عنده، وقيعة فيه من بعض حساده، فوجه إليه جنداً اقتحموا عليه داره فجأة، فوجوده يتعبد ربه في غرفة مغلقة مرتدياً ثوباً بسيطاً من الصوف، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى، وهو يتلو القرآن مترنماً بآية. فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف، فرق له، وسأله: ما يقول آل بيتك في العباس بن عبد المطلب (جد العباسيين)، فأجابه بقوله: وما يقول آل بيتي يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه؟ ولأن قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار، وقيل بل مائة ألف درهم. ولم يرد الحماني في إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح في الشرط الثاني من الجواب، وإنما أراد طاعة الله على نبيه.

ومر بنا أن الشعراء أكثروا في عصر المتوكل من ذم العلويين إرضاء له، وكان من أكثرهم قدحاً في علي وآله علي بن الهم وكان ينتسب إلى بني سامه بن لؤي القرشيين، وافتخر مراراً بهذا النسب في أشعاره، وكان طبيعياً أن لا يسكت الحماني على هذا القدح، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد عل نشره، فطعن على بن الجهم طعنة بطعنات، ولكن لا بالقدح في خلقه وعرض على عادة الشعراء في عصره، وإنما بالقدح في نسبه إلى سامة، فهو ليس من أحافده، وبالتالي ليس قرشياً ولا فيه من القرشية شيء يقول:

فأمرهم عندنا مظلم

وسامة منا فأما بنوه

(١) أنظر في الحماني وأشعاره مروج الذهب ٢٩/٤ ، ٦٥ ومقاتل الطالبين ص ٦٦٢ وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة ١٩٣٢ (أنظر الفهرس) وكتاب الديارات ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار للخالدين ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المعاني ١٠٩/١ ، ٦٥٨/٢.

أناس أتونا بأنسابهم

خرافة مضطجع يحلم

وعرف علي بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية، فلم ينبس ببنت شفة واجداً عليه ولا هاجياً، وإنما اكتفى بأبيات ينوه فيها بفضله، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته.

وقد حزن الحماني حزناً شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعياً لنفسه بالخلافة، وقتل دون أمنيته، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذي نكل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهدداً متوعداً، ولم يمض الحماني للسلام عليه، وكان الوحيد الذي تخلف من العلويين عن لقاءهن ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل، فبعث إليه بجماعة أحضره حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة وجلداً وأنه لا يخشى سطوة القائد، ولم يلبث أن أنشده:

قتلت أعز من ركب المطايا

وجئتك أستلينك في الكلام

وعز على أن ألقاك إلا

وفيما بيننا حد الحسام

وهو موقف كريم إذ لم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه، بل جاهره بما في نفسه دون خوف أو وجل. وله مرث كثيرة في يحيى، يبكيه فيها ويندبه، ويصور أنه مات موتاً كريماً، موت البطل الشجاع الذي لا يهرب الموت بل يلقاه في قوة وصلابة مهما ادلهمت الخطوب من حوله، ومهما أظلمت الدنيا في عينيه، حتى لتهول بطولته خصومه، وحتى ليطلبون لقبه السقيا وله الرحمة، يقول:

فإن يك يحيى أدرك الحتف يومه

فما مات حتى مات وهو كريم

وما مات حتى قال طلاب روحه

سقى الله يحيى إنه لصميم

ويصور في مرثيه له مأساة البيت العلوي وأن أفراده دائماً بين قتيل وجريح. وللحماني مرث كثيرة- بجانب مرثيه لابن عمه يحيى- في أهله، وفي أخيه لمه إسماعيل وهو لا يرثي فيه الأخ والرحم القريبة فقط، بل أيضاً يرثي الصديق شقيق النفس والروح، ويتفجع عليه تفجعاً شديداً بمثل قوله:

هذا ابن أمي عديل الروح في جسدي

شق الزمان به قلبي إلي كبدي

من لي مثلك يا روح الحياة ويا

يمنى يدي التي شلت من العضد

قد ذقت أنواع تكل أنت أبلغها

على القلوب وأخاها على الجلد

فاليوم لم يبق شيء أستريح له

إلا تفتت أحشائي من الكمد

قل للردى لا يغادر بعده أحداً

وللمنية من أحببت فاعتمدي

إن السرور تقضي بعد فرقته  
وآذن العيش بالتكدير والنكد  
والمرثية مؤثرة وهي سيل من الدموع والزفرات والأئين الموجع. وللحماني غزليات كثيرة تتداولها  
بعض كتب الأدب وهي تتم على شعور رقيق وخيال خصب من مثل قوله:

متى أرتجي يوماً شفاء من الضنا  
إذا كان جانيه على طبيبي  
وله فخر يتحدث فيه عن آباءه. ويصور سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص، كما يصور كبر  
همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه، يقول:

قلبي نظير الجبل الصعب  
وهمتي أكبر من قلبي  
فاستخر الله وخذ مرهفاً  
وافتك بأهل الشرق والغرب  
ولا تمت إن حضرت مية  
حتى تميت السيف بالضرب  
وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكرهته، وصور ذلك في أشعار كثيرة كأن نراه يكره الشيب  
ويكره مفارقتة لأنها تعني فقدته للحياة، وكأنه - على بغضه له - يود أن لا يفارقه، يقول:

بكي للشيب ثم بكى عليه  
فكان أعز فقداً من شباب  
فقل للشيب لا تبرح حميداً  
إذا نادى شبابك بالذهاب  
وبجانب ذمه للشيب يأسى كثيراً على الشباب وأيام لهوه ومتاعه بالنظر إلى الغايات فقد ضل  
ذلك منه، أضله الشيب، وهل من غانية تنظر إلى شيخ فان، يقول:

لقد كنت تملك ألاحظهن  
فصرن يعرنك لحظاً معاراً  
وأصبحن أعقبن بعد الوداد  
بعاداً وبعد السكون النفارا

وله وصف كثير في سرى الليل وفي اعتساف الفلوات بالإبل والخيل نجد منه مقتطفات في  
كتب الشعر، ومن طريف نعتة لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون دون أي حركة قوله:

كأن نجوم الليل سارة نهارها  
فخيمن حتى تستريح ركاها  
ووافت عشاء وهي أنضاء أسفار  
فلا فلك جار ولا كوكب سار

وكان يكثر من ذكر المنازل والديار، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من  
الكوفة مثل آثار قصرى الخورنق والسدير، وكانا من قصور الحيرة، وديارات الأساقف المطلة  
على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترف فيها الأنوار والأزهار، ومن  
قوله في تلك القصيدة:

كم وقفة لك بالخور  
بين الغدير إلى السدي  
دمن كأن رياضها  
تلقي أوائلها أوأ  
نق لا توازي بالمواقف  
ر إلى ديارت الإساقف  
يكسين أعلام المطارف  
خرها بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التي وقفنا عندها للحماني أنه كان شاعراً مجيداً، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارعة، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قرنه. وقد توفي سنة ٢٦٠ للهجرة.

### المفجع البصري<sup>(١)</sup>

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب، عالم أديب، وتدل كلمة الثعالبي في البيتمة أنه حين توفي ابن دريد العالم اللغوي الإخباري المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه في التأليف والإملاء، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه. وفي كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته. ويلفت النظر أنه شيعي وليس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة، ومعروف أن الكوفة كانت تى القرن الثالث الهجري مركز التشيع وداره. بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله<sup>(٢)</sup>، وكأنما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه.

ويبدو أن المفجع كان شيعياً إمامياً، فقد شاع مذهب الإمامية في العراق من قديم، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه ببنت قاله، وأكبر الظن أنه لقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين، وكان - على ما يظهر - يكثر من مدح الهاشميين، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبي الهاشمي البصري وفيه يقول:

المزينبي - إلى جلاله قدره -  
خلق كطعم الماء غير مزند

(١) أنظر في المفجع وأخباره وأشعاره البيتمة للثعالبي (طبعة محيي الدين عبد الحميد) ٣٦٣/٢ والفهرست ص ١٢٩ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩٠/١٧ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ والوافي بالوفيات (طبع استانبول) ١٢٩/١.

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فان فلوتن) ص ٩.

وشهامة تقص الليوث إذا سطا<sup>١</sup>      وندى يفرق كل بحر مزيد<sup>٢</sup>  
يحتل بيتاً في نؤابة هاشم      طالت دعائمه محل الفرقد  
بضياء سنته المكارم تقتدي      وبجود راحته السحائب تهدي

وله قصيدة طويلة يمدح فيها علياً - رضي الله عنه - سماها "ذات الأشباه" إشارة إلى أثر مسند إلى أبي هريرة ذكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال وهو في محفل من أصحابه: "إن تنظروا إلى آدم في علمه ونوح في همه وإبراهيم في خلقه وموسى في مناجاته وعيسى في سنه ومحمد في هديه وحلمه فانظروا إلى هذا المقبل. فتناول الناس فإذا هو علي بن أبي طالب". وعلى هدى هذا الأثر نظم المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب علي وهي تطرد على هذا النمط:

أيها اللاتمي لحي عليا      قم نميماً إلى الجحيم خزيا  
أشبه الأنبياء كهلاً وزولا<sup>٣</sup>      وفطيماً وراضعاً وغدياً<sup>٤</sup>  
كان في علمه كآدم إذ عل      م شرح الأسماء والمكنيا  
وكنوخ نجى من الهلك من سد      ير في الفلك إذ علا الجوديا<sup>٥</sup>  
وجفا في رضا الإله أباه

كاعتزال الخليل آزر في اللد<sup>٤</sup>      ه وهجرانه أباه ملياً<sup>٥</sup>  
ولو أن الوصي حاول مس الذ      جم بالكف لم يجده قصياً  
وطبيعي أن تفقد القصيدة العذوية لأنها إلى الشعر التعليمي أقرب منها إلى الشعر الغنائي وافر النغم والألحان. وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجري على هذا المنوال فالأبيات السابقة في مديح الزيني أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط، بل أيضاً فيه جزالة وحصانة. ويقول الثعالبي إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف من مثل قوله:

زفرات تعادني عند ذكرا      ك وذكراك ما تريم فؤادي  
وسروري قد غاب عني مذغب

(١) تقص: تدق وتحطم .

(٢) الزول: الفتى .

(٣) الجودي: جبل بشمالي العراق .

(٤) آزر: أبو إبراهيم .

ليس لي مفزع سوى عبرات  
 وبحسبي من المصائب أنى  
 من جفون مكحولة بالسهاد  
 في بلاد وأنتم في بلاد

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأساً في أن يقبل أحياناً على الشراب، إذا صح ما روي عنه من احتساء الخمر، ونراه يصف مجلساً من جالسها في ليلة من ليالي الأانس بها، يقول:

أداروها وللليل اعتكار  
 فقلت لصاحبي وللليل داج  
 فخلت الليل فاجأه النهار  
 ألاح الصبح أم بدت العقار  
 مشعشة يطير لها شرار  
 فقال: هي العقار تداولوها  
 حلقت بأنها في الكأس نار  
 ولولا أنني أمتاح منها

وبين أشعاره مقطوعات في بعض الغلمان، ومر بنا ما قلناه من أن أكثر ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر بقصد التتدبير والضحك، ولذلك كان ينبغي ألا نضع صنيع المستشرقين في تضخيمهم لهذه السوءة سواء عند المفجع البصري أو عند غيره. وراه "متر" ينظم قصيدة في الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلاً:

ألا يا جامع البصر  
 وسقى صحنك المزن  
 فكم ظبي من الإنس  
 نصبنا الفخ بالعلم  
 وكم من طالب للشعر  
 و لا خريك الله  
 من الغيث فرواه  
 مليح فيك مرعاه  
 له فيك فصدناه  
 ر بالشعر طلبناه

فظن أنه وقع على وصمة كبرى، وذهب يقول إن الشاعر يحكي كيف كان يغوي الصبيان في الجامع المذكور ويستنزل العاصي الصعب منهم<sup>(١)</sup>. والدليل على أنه لم يكن خالص النية في حكمه أنه أنشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين:

ألا يا طالب الأمر  
 فلا يغرك ما قلنا  
 دكذب ما ذكرناه  
 فما بالجد قلناه

(١) أنظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١٣١/٢.

فالمفجع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذباً وبهتاناً وعبثاً ودعابة، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها في مجال الحديث عن التولع بالغلطان ونصب الشباك لهم وأين؟ في المساجد الطاهرة، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض. ولم يطل به المقام في مكان أستاذه ابن دريد يملئ ويحاضر الطلاب، فما هي إلا ست سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبي نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة.

## شعرات الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هي التي أقضت مضاجع الخلفاء في هذا العصر، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى، كان بعضها يزيّف لنفسه شعاراً علوياً حتى يجمع العامة في صفوفه وتحت لوائه. وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر، فهو نائر من جهة، وهو شاعر من جهة ثانية. ويهمننا الوقوف على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يعينهم أحياناً بأشعاره من أنصاره. ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ، فهي دائماً تسوق ما قيل في انتصارات العباسيين على الثوار ولا تعني أي عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار في قليل ولا كثير.

ومن أوائل من ثاروا في العصر محمد بن البعيث لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر، وسنعرض له في موضع آخر. وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يشعل فارسي ثورة الزنج بالبصرة متزعماً لها، وفصلنا في الفصل الأول القول في هذه الثورة وكيف دوخت الدولة العباسية وعرضتها لكارثة عظيمة، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سخطاً هائلاً على كبار الملاك الإقطاعيين الذين كانوا يسخرونهم في كسح أرض البصرة وزرعها دون أي رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء. وتجمع حوله الزنج واستحالوا إلى جيش لجب اجتاح جنوبي العراق وكاد يجتاح العراق كله في بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم ولزعيمهم الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد، كما مر بنا في غير هذا الموضع، وكان بطلاً مغواراً لا يشق غباره، وكانت الجيوش توالى في حرب هذا الثار وأصحابه، وكان يمزقها شر ممزق، حتى تولى قيادتها الموفق، فاستحالت الهزيمة نصراً، ولكن أي نصر؟ لقد كان نصراً بطيئاً، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة.

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب في المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعي، ولكن زعيمها لم يمض بها في السعي إلى هذه الغايات كما كان يعد في أول ثورته، فقد استباح في حروبه استرقاق الأحرار، وكأنما ألغى رده الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاق على غيرهم، فانعكست صورة الاسترقاق، ولكنها ظلت كما هي وظلت طبقات من الناس تسترق طبقات أخرى. وكان قد رأى إنجاحاً لثورته أن يشفي عليها مسحة دينية، كما مر بنا في الفصل الأول، فأشاع في الناس أن اسمه علي بن محمد وأنه من سلالة زيد بن علي

بن الحسين، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعي في الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين، بل من حقه عليهم أن يصروه ويؤازروه. وانضم إليه كثيرون من الأحرار وأعراب البوادي بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق، ولكن ثورته باءت - بعد أربعة عشر عاماً من المعارك العنيفة - بالإخفاق الذريع.

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذي ظلت ثورته أربعة عشر عاماً أو تزيد، والذي كان يسرف في القتل وسفك الدماء، حتى قالوا إنه قتل في البصرة في يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف، وأنه كان ينهب أصحابه الأموال ويحرق الدور والقصور. وكل ذلك لا نريد أن نقف عنده، ولا عند ما يقال من أنه كان دائماً يخطب في أنصاره<sup>(١)</sup>. إنما نريد أن نقف عند ما يبقى لنا من بعض أشعاره<sup>(٢)</sup>. يقول المرزباني: "تروي له أشعار كثيرة في البسالة والفتك"، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قرئت عليه أمامه، فشهد بأنها له، ولم ينكرها، وكأن من معاصريه من كان يشك في أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه، مما جعل ابن دريد يؤدي الشهادة السالفة. وكان من قرية تسمى ورزنين بإيران، وكأنه تلقن فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعاً، وله يخاطب بني العباس:

بني عمنا لا توقدوا نار فتنة	بطيء على مر الليالي خمودها
بني عمنا إنا وأنتم أنامل	تضمنها من راحتها عقودها
بني عمنا وليتم الترك أمرنا	بديئاً وأعقاباً ونحن شهودها
فأقسم لا ذقت القراح - وإن أدق	فبلغت عيش - أو يبار عميدها <sup>(٣)</sup>

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقاً ابن عمه علي بن أبي طالب أو حفيده، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة، وكان ينبغي أن يستسلموا له فليسوا جميعاً إلا أنامل يد هاشمية واحدة. ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك، ونه سيجاهدتهم جهاداً مريباً. وكان يكثر من تصوير ما يجري في قصورهم من خمر ومجون ينبغي أن تبرأ منه قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لا قصور إثم وعصيان، وفي ذلك يقول:

لهف نفسي على قصور ببغدا      د وما قد حوته من كل عاص

(١) الطبري ٤١٤/٩ وما بعدها.

(٢) أنظر في أشعار صاحب الزنج معجم الشعراء للمرزباني ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب ص ١٥٥ وما بعدها.

(٣) الماء القراح: البارد العذب . بلغة العيش: أقل ما يكفي . يبار: يهلك .

ورجال على المعاصي حراص

وخمر هناك تشرب جهراً

أقحم الخيل بين تلك العراص

لست بآبن الفواطم الزهر إن لم

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو والمجون والعبث واقتراف الآثام، حتى يستثير الناس معه. وينسب نفسه إلى فاطمة الزهراء، بل إلى الفواطم الزهر، حتى يستهوى القلوب. ويعلن أنه سيجاهد العباسيين ويستمر في جهاده حتى تسقط بغداد. وظل ثابتاً في جهاده مخلصاً له في أحلك الظروف، حتى بعد أن فقد الأمل، فإنه لم يستسلم للموقف بعد أن استسلمت عامة أنصاره، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضى أكثر جنده والبقية الباقية منهم، بل ظل يقاتل حتى سفك دمه أمام منزله وهو ينشد:

خرجنا وخلقناه غير نديم

عليك سلام الله يا خير منزل

وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف في الكرج وكان شاعراً، وسنعرض له عما قريب. ونشبت ثورة القرامطة، وكان دعائها يصلونها بالدعوة الإسماعيلية الشيعية، كما مر بنا في الفصل الأول. وكان غير تائر من هؤلاء الدعاة يصل نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، مزيفاً لذلك سلسلة نسب كاذبة، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسباً يصله بزيد بن علي زين العابدين. وكان داعيتهم الأول قرمط مكون الفرقة قد التقى في سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية، فانضم إليه، وأخذ في تنظيم حركته القرمطية واضعاً لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة، فتبعه خلق كثير أخذ يغير بهم على سواد الكوفة. وما نصل إلى سنة ٢٨٩ حتى نجده يختفي في ظروف غامضة، ويتولى زعامة حركته زكرويه الدنداني، ويرى - كما مر بنا - الدولة بالمرصاد له ولجماعته، فيرسل بأبنائه: يحيى والحسين ومحمد إلى قبيلة كلب ببادية السماوية بين العراق والشام، لعلهم يستجيبون إلى دعوتهم، ويتبعهم كثيرون، ويبايعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذي زعم لهم أنه من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وتسمى لهم باسم أبي عبد الله علي بن محمد، وقيل بل تسمى باسم محمد، وتكهن لهم مدعياً أنه يوحى إليه، وكشف لهم عن عضد له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته، كما زعم أن ناقته التي يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها في لقاء أي عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين. ومضى بجموعه في سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويعيث في الأرض فساداً. وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء، ودحر جيشاً للعباسيين، وعاد يحاصر

دمشق، غير أنه قتل على أبوابها. وكان شاعراً، ترجم له المرزباني في معجمه<sup>(١)</sup>. ونراه في بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بني هاشم، يقول:

أنا ابن الفواطم من هاشم  
وخير سلالة ذا العالم  
وطئت الشام برغم الأنام  
كوطاء الحمام بني آدم

وهي نسبة كاذبة. ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرته العلويين ولا كان فيها متشيعاً لهم، إنما كان متشيعاً لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج- على نحو ما مر بنا- عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية، وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب: المريخ والعيوق وسعد الذابحين ملوحاً للعامّة التي تتبعه بأن علم التجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه في الموصل ومدينة الرحبة التي بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة، بل إنه سيدمر بغداد تدميراً وينهب كل ما في قصورها من أموال يقول:

تقاربت النجوم وحان أمر  
قران قد دنا منه النذير  
فمريخ الذبائح مستهل  
قوي ما لوقدته فتور  
وعيق الحروب له احمرار  
وسعد الذابحين له بدور  
فبشر رحبتي طوق بيوم  
من الأيام ليس له نظير  
ورافقة الضلالة ليس يغني  
إذا ما جئتها باب وسور  
وبغداد فليس بها اعتياص  
على أمري وليس لها نكير  
أصبحها فأتركها هشيماً  
وأحوى ما حوته بها القصور

ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجنابي صاحب الأحساء والبحرين، وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قرمط، وكلفه بنشر الدعوة في جنوبي إيران، وأخفقت مساعيه، وعاد إلى قرمط، فأرسله إلى البحرين والأحساء، وسرعان ما استجابت له قبيلة عبد القيس. ودخلت المنطقة في سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة، وقتله غلام صقلي في سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر، وعظم أمره، إذ واقع عساكر الخليفة المقتدر مراراً كما مر بنا في الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه، واتسع ملكه في شرقي الجزيرة العربية، وكثر أتباعه وجنوده، ونال ما ل ينله قرمطي قبله. وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الإسماعيلي، وكان شأنه قد أخذ يعظم في إفريقية، ولم يكن يدعو له حقيقة، بل كان يتخذ ستاراً لخروجه على الخلافة العباسية.

(١) معجم الشعراء للمرزباني ص ١٥٣.

وكان كثيراً ما يغير على البصرة وينكل بأهلها، ويسفك دماءهم، ويحرق دورهم كما يحرق المساجد. وكثيراً ما كان يغير على قوافل الحجاج يفتك ويقتل وينهب، وجيوشه تغدو وتروح إلى عاصمته "هجر" محملة بالأموال، فكان طبيعياً أن يمتد به طمعه وطموحه إلى أن يستولي على بغداد، بل إلى أن يستولي على العالم الإسلامي كله وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم لها أنه سيظل حياً حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة، وفي ذلك كله يقول من قصيدة طويلة مهدداً متوعداً<sup>(١)</sup>:

فمن مبلغ أهل العراق رسالة	بأني أنا المرهوب في البدو والحضر
فياويلهم من وقعة بعد وقعة	يساقون سوق الشاء للذبح والبقر
سأصرف خيلي نحو مصر وبرقة	على قيروان الترك والروم والخزر
أكيلهم بالسيف حتى أبيدهم	فلا أبق منهم نسل أنثى ولا ذكر
أعمر حتى يأت عيسى بن مريم	فيحمد آثاري وأرضى بما أمر

وعزم في سنة ٣١٥ على غزو بغداد، فخرج عليها في ألف فارس وخمسة آلاف راجل، فجهز المقتدر لحربه جيشاً بقيادة يوسف بن أبي الساج، والتقى الجيشان، ودارت الدوائر على ابن أبي الساج وجيشه، وأخذ أسيراً، وأسرع مؤنس بجيش كثيف في نحو أربعين ألفاً، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب العراق والموصل، والتقى بأبي طاهر وجيشه عند الأنبار، غير أن أبا طاهر انصرف راجعاً إلى بلاده، ولم يواقع مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه، وكأنا خشي على نفسه مغبة الحرب، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالأبيات التالية ساخرًا منه سخرية شديدة<sup>(٢)</sup>:

قولوا لمؤنسكم بالراح كن أنساً	واستتبع الراح سرناياً ومزماراً
وقد تمثلت عن شوق تقاذف بي	بيتاً من الشعر للماضين قد سارا
نزورك لم نؤاخذكم بجفوتكم	إن الكريم إذا لم يستزر زارا

وهو يهزأ به وبشجاعته التي عرف بها، ويقول له إنك لست من أهل الحرب والبأس، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرنائي وغير السرنائي، ويستمر في هزؤه، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبعنوده.

(١) النجوم الزاهرة ص ٢٢٥/٣.

(٢) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ٥٥.

وتطغى أبا طاهر الجنابي انتصاراته على جند الخلافة، ويغره بالله الغرور، ويشتهر عنه أنه لا يصلي ولا يصوم ولا يعرف حدود الله. وما يوافي شهر ذي الحجة في سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجاج من قوافلهم إلى البيت الحرام، وإذا السيوف تتوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التروية، وهم يهللون لربهم ويلبون، وهو وأنصاره ينحرون فيهم، كأنهم كباش أعدت للذبح، دون أي شفقة أو رحمة. ولم يكتفوا بمن ذبحوهم في فجاج مكة، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون ويذبحون والناس يتعلقون باستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم، ولا شفيع لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم. وبلغ من سفهه وخرقه أن أمر بطرح القتلى في بئر زمزم، واقتلع الحجر الأسود من موضعه، وأخذه معه إلى هجر وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفاً من الخليفة المطيع وخشية من بأسه وباس البوهيين. وجرّد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف أهداها الخلفاء على مر السنين. وروي المؤرخون أنه كان في أثناء هذا العمل الوحشي الفظيع يترنم بأشعار له مبتهجاً؛ وكأنما كان يشفي غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات، وبما كان ينشده من هذه الأشعار التي يحاد بها الله ورسوله من مثل قوله<sup>(١)</sup>:

لصب علينا النار من فوقنا صباً

ولو كان هذا البيت بيتاً لرينا

محللة لم تبق شرقاً ولا غرباً

لأنا حججنا حجة جاهلية

ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حجياً

ولكن رب العرش جل جلاله

وكانه بذلك يعلن كفره، صريحاً غير موار، بفريضة الحج إلى بيت الله، التي تعد ركناً أساسياً من أركان الإسلام. وبذلك يتضح أن أبا طاهر لم يكن ثائراً عنيفاً فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج، بل إنه يتقدمها خطوات في الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين، إذ خلع الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم ويذبحهم ذبحاً حيث لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور، غير ما انتهكه من حرمان بيت الله المقدس انتهاكاً ليس له سابقة ولا لاحقة في التاريخ. ولعل من الخير أن نبسط القول قليلاً في شاعرين ثارا على الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري، وهما محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دلف.

(١) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ٦٢.

## محمد<sup>(١)</sup> بن البعيث

من فتيان بني أسد نزلت عشيرته في أذربيجان، واشتهر أبوه بأنه كان من الفتاك الصعاليك، واستطاع محمد أن يمتلك في تلك الديار قلعتين: قلعة تسمى شاهي وأخرى تسمى بكر، وكانت شاهي أشد مناعة فكان يقيم فيها كثيراً. واشتهر أمره في عصر المعتصم وحروب بابك، فإنه كان يحاول أن يكون محايداً بين الطرفين المتخاصمين، فإذا نزلت سرايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة، وهو في أثناء ذلك يراوغ، وقد ينقل للجيش العباسي وقواده أخبار بابك، وقد ينقل إلى بابك أخبار الجيش العباسي. وكان هواه مع العباسيين، غير أن وقوفه متقرباً دون أن يقحم نفسه في تلك الحروب وينصر العباسيين جعل اسحق بن إبراهيم المصعبي أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويلقي به في غياهب السجون. ويتوسط له بعض القواد، فيفرج عنه، على ألا يبرح سامراء حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها، واختار حصن مرند، فجمع فيه عدده وأسلحته وأنصاره وزادهم، ورم ما كان وهي من سورها، وكان في داخلها وخارجها بساتين، تدور من حولها أشجار كثيرة. ووجه إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه، ثم وجه إليه بغا الشرايبي، فزحف إلى الحصن وقطع ما حوله من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة، ونصب عليه المجانيق، وبئس ابن البعيث من مطاولة الحصار، ففر على وجهه وهو ينشد:

كما قد قضيت أموراً كان أهملها  
غيري وقد أخذ الإبلاس بالكظم<sup>(٢)</sup>  
لا تعذليني فيما ليس ينفعني  
إليك عني جرى المقدار بالقلم  
سأتلّف المال في عسر وفي يسر  
إن الجواد الذي يعطي على العدم

وتبعه نفر من الجيش العباسي، فلحقوه، وهو راكب دابة متقلد سيفاً يريد أن يصير إلى نهر عليه رحي ليستخفي في الرحي، وأخذوه أسيراً ذليلاً، وانتهت الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة، ونادى مناد بالامتناع عن النهب. وأتى بابن البعيث إلى المتوكل، فأمر بضرب عنقه، فطرح على نطع، وجاء السيفون فلوحوا له بسيوفهم، وقال له المتوكل حانقاً غاضباً: ما دعا يا محمد إلى ما صنعت؟ فأجابته: الشقوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاً بك، وهو العفو، ثم اندفع ينشده:

(١) أنظر في ثورة محمد بن البعيث وأخباره الطبري ٢٥/٩، ٢٧، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٧١ ومروج الذهب ٤/٤١ ومعجم الشعراء ص ٣٨٥.

(٢) الكظم: مخرج النفس من الحلق. الإبلاس: انقطاع الحجة.

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي  
 وهل أنا إلا جبلة من خطيئة  
 إمام الهدى والصفح بالحر أجمل  
 وعفوك من نور النبوة يجبل<sup>(١)</sup>  
 فمن بعفو منك والعفو أفضل  
 فتضاءل ذنبي عند عفوك قلة  
 فإنك خير السابقين إلى العلا

فقال المتوكل: أفعل خيرهما وأمن عليك، ارجع إلى منزلك، وخفف عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت. وفي الطبري أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى. وكان جواداً ممدحاً طالما قصده الشعراء بمدحهم، وأجزل لهم في عطائه، وممن ذكر منهم المرزباني في معجمه يحيى<sup>(٢)</sup> بن أحمد من أهل مدينة الرحبة في الموصل، وفيه يقول: "كان في كل ناحية محمد بن البعيث، ومدحه مدحاً كثيراً" منه قصيدة أولها:

لا زال محسوداً على أفعاله  
 شطره بين معاقب أو غافر  
 وحسوده في الناس غير محسد  
 أو عائد متفضل أو مبتدي  
 شفعاً ووتراً كل ذاك فعاله  
 كالدهر إلا أنه لا يعتدي  
 فالناس تحت لوائه من راغب  
 أو راهب أو رائح أو معتدي

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى في الدعاية له، وهو يصوره فارساً رائحاً غادياً على أعدائه، والناس بين راهب من بطشه وراغب في كرمه الفياض، وتارة يعاقب أعداءه عقاباً أليماً، وتارة يعفو عفواً رحيماً، ويدعو له أن يظل محسوداً متنسماً لذروة المجد الرفيعة. ومن قوله فيه:

متى ألق من آل البعيث محمداً  
 وتضحك أم البشر عني بنيله  
 أحل رياضاً للعلا بمحمد  
 فأرجع محسوداً بنيل محسد

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة، فهو جواد، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة، وهو أديب يحسن العربية والفارسية. وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطع والسياف شاهر سيفه يريد أن ينقض عليه وأن يحز رأسه ويزهق روحه، وشرر الغضب يتطاير من عيني المتوكل وقد انتفخت أوداجه. وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفاً ولا هلعاً، فظل رابط الجأش مجتمع القلب، لا تخونه الكلمة في اللحظة الحرجة، بل لا يخونه

(١) الحبلية: الخلق والطبيعة .

(٢) أنظر في ترجمته وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٩١.

البيت الذي يستل الغضب من نفس المتوكل. وقد بلغ منه مبلغاً خطيراً، حتى أوشك أن يقضي عليه قضاء مبرماً. وهي قدرة نفسية كانت تمتزج بقدرته البيانية.

### بكر<sup>(١)</sup> بن عبد العزيز بن أبي دلف

حفيد أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي الشيباني البطل المغوار الذي أبلى بلاء عظيمًا في حروب بابك لعهد المأمون والمعتصم، وكان هرون الرشيد ولاه- وهو حدث السن- أعمال الجبل في غيران، ولم يزل عليها إلى أن توفى سنة خمس وعشرين ومائتين. وكان أديباً شاعراً وله مقطوعات تتردد في كتب الأدب، وهو ممدوح أبي تمام وعلي بن جبلة الذي قال فيه:

إنما الدنيا أبو دلف  
بين باديه ومحتضره  
فإذا ولي أبو دلف  
ولت الدنيا على أثره

وقد تولى إقليم الجبل ابنه عبد<sup>(٢)</sup> العزيز وكان شاعراً، وشجاعاً باسلاً، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بغا، فنارت ثائرة عبد العزيز وفر إلى قلعة له ولعشيرته في الكرج بين همذان وأصفهان، وظل ينازل الدولة العباسية. ونراه في سنة ٢٥٤ يجبي همذان. ويخلف ابنه أحمد، فيتولى زعامة أسرته ويمد سلطانه على أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرياسة بعده أخوه عمر وبكر، ويتم لعمر القيام بالأمر، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية، حتى لا يثور بكر، غير أنه عاد فولى في سنة ٢٨٣ عيسى النوشري على أصبهان، وغضب بكر ومن كانوا ينضون تحت لوائه من الأعراب، فولى وجهه معهم نحو الأهواز، وخرج في طلبه القائد التركي وصيف حتى بلغ حدود فارس. ولحقه، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب، وباتا كل واحد منهما قريب من صاحبه، وارتحل بكر ليلاً ولم يتبعه وصيف، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد. وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدي يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعريه.

وكان بكر شاعراً انحدر إليه الشعر من أبيه وجدته، وله ديوان صغير نشر في دهلي باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى في أشعاره بفتوته وفروسيته، وله ميمية طريفة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بدرًا غلامه أن يتعقبه، وفيها يتوعده ويتهدده بمثل قوله:

ألقى الأحبة بالعراق عصيهم  
وبقيت نصب حوادث الأيام  
وتشعب العرب الذين تصدعوا  
فذبيت عن أحسابهم بحسامي

(١) أنظر في بكر وأشعاره ديوانه وتاريخ الطبري ٤٧/١٠ ، ٥١ ، ٦٣.

(٢) أنظر في عبد العزيز وولايته على الجبل الطبري ٣٧٢/٩ ، ٣٧٣ ، ٣٨١.

فلاقرعن صفاة دهر نابهم  
ولأتركن الواردين حياضهم  
يا بدر إنك لو شهدت موافقي  
لذمت رأيك في إضاعة حرمتي  
قرعاً يهد رواسي الأعلام  
بقرارة لمواطئ الأقدام  
والموت يلحظ والصفاح دوامي  
ولضاق ذرعك في أطراح ذمامي  
حركتني بعد السكون وإنما  
حركت من حصني جبال تهام

وواضح من حديثه في مطالع هذه الأبيات أنه يأسى للعرب في عصره، فقد تشعبوا وتفرقوا شيعاً وطرائق شتى، فعرضهم الدهر بنابه وأصبحت حياضهم مباحة يردها الأعاجم وغير الأعاجم، وها هو وحده يقف للدفاع عن عربهم، ولا معين له غير عزيمته الماضية وسيوفه القاطعة. وإنه ليتهدد الدهر أن ينزل به أشد النكال كما يتهدد من استباحوا حمى العرب والعروبة بالذل والهوان حتى ليصبحون موطناً للأقدام، ويتحول إلى بدر المعتضدي واصفاً له مواقفه البطولية حين تسل السيوف وتسدد الرماح ويلتقم الموت الأبطال، حتى يستشعر الندم على تضييعه لزامه وتحريكه للحرب المبيرة بعد سكونها. ويبدو أن بدرأ رأى أن يكل أمره على غيره، فكلف عيسى النوشري بمهاجمته، وصدع لتكليفه، ولكنه لم ينجح سريعاً في مهمته، واضطر في بعض المواقف أن ينسحب بجيشه، فقال بكر يذكر فراره من بين يديه، ويتهدد بدرأ صاحبه، من قصيدة طويلة:

ليس كالسيف مؤنس حين يعرو  
أوقدوا الحرب بيننا فاصطلوها  
ويغوا شرنا فهذا أوان  
قد رأى النوشري لما التقينا  
جاء في قسطل لهام فصلنا  
غر بدرأ حلمي وفضل أناتي  
حادث معضل ويفدح أمر  
ثم حاصوا فأين منها المفر<sup>(١)</sup>  
قد بدا شره ويتلوه شر  
من إذا أشرع الرماح يفر  
صولة دونها الكماة تهر  
واحتمالي وذاك مما يغر

على أنه سرعان ما اضطر إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النوشري في حدود أصفهان، فقتل رجاله واستباح عسكره. وأفلت في نفر يسير، وغادر إقليم الجبل متجهاً إلى محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان، فأكرم وفادته عليه، وقربه منه، وولاه على إقليم رويان، غير أنه مات مسموماً في طريقه إليها لسنة ٢٨٥.

(١) حاصوا: حادوا .

## شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولاياته وقواده داروا على ألسنة الشعراء يمدحونهم طلباً للنوال، غدا كانت بأيديهم أموال الدولة، وكانوا ينثرونها نثراً على الدعاية لهم، ولم يكن للدعاية حينئذ لسان سوى الشعر، فالوزير وكذلك والي والقائد حين يطريه شاعر ويثني عليه يطير اسمه في الناس، ولذلك كان كثيرون يجمعون الشعراء من حولهم، لكي يعددوا مناقبهم، ويصوروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة. وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه، ويرفعون منزلتهم عالية. وكان في مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مديحه وما يصلهم من نواله<sup>(١)</sup>، وهو من ممدوحى البحتري كما مر بنا في غير هذا الموضوع، وكان شاعراً مرهف الذوق، وله البيت المشهور<sup>(٢)</sup>:

ليس يستحسن في شرع الهوى      عاشق يحسن تأليف الحجج

ومثله من وزراء المتوكل في كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وهو أيضاً، من ممدوحى البحتري، ومن مادحيه<sup>(٣)</sup> محمد بن غالب الأصبهاني والقنبري<sup>(٤)</sup>، وفيه يقول أبو هفان يوم النيروز وفيه تقدم هدايا كثيرة<sup>(٥)</sup>:

إذا نحن مدحناك      رعيانا حرمة المجد  
وما استطرقت للإهدا      ء إلا طرف الحمد

وكان يزر للمنتصر أحمد بن الخصيب ولم تكن له رصانة صاحبيه، بل كان فيه حمق كثير، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلباً للريح والنوال، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه<sup>(٦)</sup>:

سموه أحمد فالإسلام يحمده      والدهر كاسم أبيه ممرع خصب  
فلا فضائل إلا منه أولها      ولا مواهب إلا دون ما يهب

(١) أنظر مثلاً ترجمة ابن أبي فنن الشاعر في تاريخ بغداد ٢٠٢/٤.

(٢) معجم الشعراء ص ١٩١.

(٣) معجم الشعراء ص ٤٠٩.

(٤) نفس المصدر ص ٤٢٣.

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٩.

(٦) معجم الشعراء ص ٣٧٨.

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد، ويردد البحتري في ديوانه مديحه، وتلقانا مدائح في وزراء المعتر مثل عيسى بن فرخان شاه وجعفر بن محمود الإسكافي. ويتولى وزارة المهتدي سليمان بن وهب، وهو كما يقول الفخري أحد كتاب الدنيا وأحد عقلاء العالم، وكان يحسن الشعر كما كان يحس الكتابة، وهو من ممدوحى البحتري، وفي كتاب الأغاني ترجمة طويلة له، وكثير من المدائح قدمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالسي<sup>(١)</sup>:

أسفر الشرق منك والغرب عن ضو  
ء من العدل فاق ضوء البدور

أنشر الناس غيثكم بعد ما كا  
نوا رفاتاً من قبل يوم النشور<sup>(٢)</sup>

ووزر للمعتمد الحسن بن مخلد، وكان ماهراً في الكتابة، وهو أيضاً من ممدوحى البحتري، وكان مقصداً للشعراء. ويخلفه إسماعيل بن بلبل، وهو كسابقه من ممدوحى البحتري، ومدائح ابن الرومي وأهاجيه فيه مشهورة. ويكثر البحتري وابن الرومي معاً من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخي عبدون، كما يكثر ابن الرومي من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد، وفي ديوان ابن المعتر مدائح لهما مختلفة. وتدور أسماء وزراء المكتفي والمقتدر على ألسنة الشعراء، وفي ابن الفرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف<sup>(٣)</sup>:

يتلقى الندى بوجه حبي  
وصدور القنا بوجه وقاح

هكذا هكذا تكون المعالي  
طرق الجد غير طرق المزاح

ولأبي بكر يحيى بن محمد الصولي أشعار ومدائح كثيرة في وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر، وكان يدمج مديحهم في مديح الخلفاء، وقد يمدحهم ملحقاً مستقلاً من مثل قوله في أبي عبد الله البريدي وزير الخليفة المتقي<sup>(٤)</sup>:

ما رأى الناس بالوزير البريد  
ي كذا اليوم منه حسناً وفخراً

الذي يعشق المكارم والمج  
د ويشري بالمال حمداً وشكراً

ولعل أكثر الولاة مديحاً في هذا العصر آل طاهر، وفي مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر والي خراسان، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان، وعرضنا فيما

(١) أغاني (ساسى) ٦٧/٢٠ ومعجم الشعراء ص ٤٦٤.

(٢) أنشر: أحيي.

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتر ص ٣٥٩ مقابلة على ص ٤٥٤.

(٤) أخبار الرازي والمتقي بالله للصولي ص ٢٠٢.

أسلفنا مدائح البحترى وابن الرومى فيهم، وممن كان منقطعاً إليهم أبو الأشعث المروزي<sup>(١)</sup>. وفي طاهر يقول مدرك ابن غزوان الجعفري من قصيدة<sup>(٢)</sup>:

حمى طاهر شرق البلاد بيمينه  
وشعث النواصي لا تجف لبودها<sup>(٣)</sup>  
ينىخ بها أرض العدو وبيتتي  
مآثر مجد كان قدماً يشيدها

وممكن كان يخص محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبي فنن، وتصادق أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له، وكان عامل الخراج والعشور يلح عليه في طلب عشوره وخراجه، وربما آذاه، فكتب على محمد يستغيث به من قصيدة طويلة<sup>(٤)</sup>:

أبني حسين إنني  
ولنا معاش في قطي  
لولا تردد عامل  
فهل الأمير بجوده  
أصبحت في كنف الأمير  
عته على الماء النمير  
كالكلب في يوم مطير  
من قبح طلعتة مجيري

فلما قرأ محمد القصيدة وقع تحتها قد أجرناك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال خراجك - وكن في كل سنة ستة آلاف درهم - وحمل إليه ألف دينار، وحلف عليه أن يقبلها. قال ابن أبي فنن: وصرت منذ هذا الحين أمدحه في كل عام بقصيدة. ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي وإلى الكوفة، وهو من ممدوحى البحترى وابن الرومى، ومثله إبراهيم بن المدبر الذي ولي الدواوين في سامراء وبغداد وولي في بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله وأغرقوه بمدائحهم، وهو ممدوح البحترى. ونرى شاعراً يكاد يخصه بمدحيه وخاصة طوال مقامه في البصرة، وهو أبو شراعة شاعرها، وكان لا يفارق أيام تقلده لها ولا يمنعه حاجة ولا شفاعة يسألها إلا حققها له، وفيه يقول<sup>(٥)</sup>:

إنما لذتاك في المال شتى  
صونك العرض وابتدال المال  
ما نبالي إذا بقيت سليماً  
من تولت به صروف الليالي

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٢.

(٢) معجم الشعراء ص ٣٣٤.

(٣) شعث النواصي: الخليل .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦ والديارات ص ١٢٥.

(٥) أغاني (طبع الاسي) ٣٦/٢٠.

ومر بنا في حديثنا عن البحترى أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه خمارويه وبعض قواده، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبي وإلى الموصل وسيما الطويل وإلى حلب ورافع بن هرثمة وعلى الري، كما مدح بعض قواد الترك مثل وصيف الصغير وأذكوتكين. ولا بد أن شعراً كثيراً نظم في مديح القواد، إذ تشير نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر، ومع ذلك نفتقد الشعر الذي يصور بطولة قواد العصر إلا ما نظم في الموفق وابنه المعتضد، مما مرت بنا الإشارة إليه عند البحترى وابن الرومي وابن لمعتز. ويتعرض أبو بكر الصولي لبعض القواد في عصره وخاصة في مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد في عصر الراضي، وكان يتحكم في شئون الدولة حتى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة<sup>(١)</sup>. وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين - وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا في الدواوين أولاً - وممن كان ممدحاً منهم آل ثوابه، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتضد، وكان من أكثرهم جوداً وكرماً أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابه، وهو ممدوح البحترى، وكان يمدحه شعراء كثيرون دبجوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبي هفان<sup>(٢)</sup>:

في سوى السؤدد والمجد وطر

الثوابي فتى ليس له

وقوله<sup>(٣)</sup>:

لم ينسني قط في ناي ولا كذب

نفسى فداء أبي العباس من رجل

من بالعراقين من عجم ومن عرب

يقرى وبالرقة البيضاء منزله

ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم في أضواء أكثر وضوحاً، وهم أبو علي البصير وأحمد بن أبي طاهر وابن دريد.

(١) أخبار الراضي والمتقي للصولي ص ١٠.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠.

(٣) ديوان المعاني ٦٥/١.

## أبو علي<sup>(١)</sup> البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس، اصل أسرته من الأنبار، انتقلت إلى الكوفة فنزلت في حي النخع، وهي أسرة فارسية الأصل. وكان أبو علي ضريباً ولقب بالبصير على العادة في التفاؤل أو لذكائه وفطنته. وكان شيعي الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة، وأكبر الظن أنه كان إمامياً يؤمن بالتقية، ولذلك لم ير باساً في أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامراء. ونزل الأخيرة في خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان يمدحهما وينال جوائزهما، ولحق زمن المعتز وهنأه بالخلافة كما مر بناف ي غير هذا الموضوع. ولم يكن شاعراً فحسب، بل كان أيضاً صاحب رسائل نثرية بارعة، وفي الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت قطعة منها بديعة. ويقول المسعودي: "كان من أطبع الناس في زمانه لا يزال يأتي بالبيت النادر والمثل السائر الذي لا يأتي به غيره، وله في الفضل حفيد الحسن بن سهل:

ملك ندفع - ما نخشى - به      وبه - نصلح منا ما فسد

ينجز الناس إذا ما وعدوا      وإذا ما أنجز الفضل وعد

ودقة العبارة واضحة، وواضح معها دقة الفكرة في البيت الثاني، فالفضل لا يزال يؤدي وعوده وكلما أدى وعداً وعد ثانياً، فهو بحر من الجود لا ينقطع فيضه، ومن طريف ماله في الفتح بن خاقان قوله واصفاً بلاغته وشعره:

سمعنا بأشعار الملوك فكلها      إذا عض متنيه الثقاف تأودا

سوى ما رأينا لامرئ القيس إننا      نراه متى لم يشعر الفتح أوحدا

أقام زماناً يسمع القول صامتاً      ونحسبه إن رام أكدي وأصلدا<sup>(٢)</sup>

فلما امتطاه راكباً ذل صعبه      وسار فأضحى قد أغار وأنجدا

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثقاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأود وتتثنى إلا ما كان من شعر امرئ القيس، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبي الشعر العربي

(١) أنظر في أخبار أبي علي البصير وأشعاره كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ ومروج الذهب السعدي ٦٢/٤ ، ٨٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ١٨٥ ونكت الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب الحصري ٩٥/٣ ، ١٩٣ والديارات ص ٨١ ، ٢٤٨ والفهرست ص ١٨٤.

(٢) أكدي وأصلدا: أعطى قليلاً.

كله. وصوره يطيل إرهاف سمعه لمادحيه، حتى ليظن الرائي أنه لا يحسن قوله الشعر ولا نظمه، حتى إذا رامه ونظمه ذاع في طول البلاد وعرضها وفي حزنها وسهولها ونجادها وأغوارها. ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له في ذلك أشعاراً، ولم يصلنا من هذه الأشعار شيء ولعل كثيراً منها كان في مدح آل البيت. وروي له الحصري تهنئة بمولود، نظن ظنا أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوي، وفيها يقول:

أتاني البشير بن قد رزقت	غلاماً فأبهجني ما ذكر
فعمرك الله حتى ترا	هـ قد قارب الخطو منه الكبر
وحتى ترى حوله من بنيه	وإخوته وبنيهم زمر
وأوزعك الله شكر العطاء	فإن المزيد لعبد شكر
وصلى على السلف الصالح	بين منكم وبارك فيمن غبر

وكان يؤدي نفسه إيذاء شديداً أن يقدم شعره أحياناً لبعض الرؤساء أو بعض رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا منه هذا الموقف في صور مختلفة، فعزت عليه نفسه وكرامته، وأنشأ يقول:

وإني قد بلوتكم جميعاً	فما منكم على شكري حريص
وأرخصت الثناء ففتموه	وربما غلا الشيء الرخيص
فعمت نوالكم ورغبت عنه	وشر الزاد ما عاف الخسيس <sup>(١)</sup>

ولعل شخصاً لم يؤذ نفسه وكبريائه كما آذاه المعلي بن أيوب أحمد قواد الجيش، ولعل ذلك ما جعله يخصه بيتين كأنهما سهمان مصمیان، إذ يقول فيه:

لعمر أبيك ما نسب المعلي	على كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت	وصوح نبتها رعي الهشيم <sup>(٢)</sup>

وكان يحس فقدته لبصره إحساساً عميقاً، ولكن ذلك لم يكسر نفسه ولا أصابه بهوان، إذ نراه يدل بأن غيره من المبصرين يستمدون علمهم من الكتب المخددة، أما علمه فدفتره القلب وحبره السمع، ويعتذر اعتذارات طريفة عن أنه لا يستطيع شيئاً غلا بغيره كما نرى في مثل قوله:

لئن كان يهديني الغلام لوجهتي	ويقتادني في السير إذ أنا راكب
------------------------------	-------------------------------

(١) الخسيس: من الخصاصة؛ وهي الفقر والاحتياج.

(٢) اقشعرت: أجدبت. وصوح: بيس.

لقد يستضيء القوم بي في أمورهم  
ويخبو ضياء العين والرأي ثاقب  
وهو كثير السخرية في أشعاره. وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة حاضرة حضوراً  
شديداً، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبي العيناء الضرير ويروي أنه قال له: إنني ولدت وقت  
طلوع الشمس، فقال له تواً: لذلك خرجت مكدياً (شحاذاً) لأنه وقت انتشار المساكين. وله غزل  
بارع من مثل قوله:

ألت بنا يوم الرحيل اختلاسه  
فأضرم نيران الهوى النظر الخلس<sup>(١)</sup>  
تأبت قليلاً وهي ترعد خيفة  
كما تتأبى حين تعتدل الشمس  
فخاطبها صمتي بما أنا مضمز  
وأنبست حتى ليس يسمع لي حس<sup>(٢)</sup>  
وولت كما ولي الشباب لطية  
طوت دونها كشحاً على نفسها النفس

والقطعة بديعة وتدل على رهافة الحس ودقة الشعور وخصوصية التفكير، وكأن البصير روي لنا  
قصة لا مجرة خطرات في الحب والوجد. وكان يشارك أحياناً في الخمر والمجون واللهو، وله  
دعابة نظمها وهو يريد الحج، صور فيها نفسه ألم بالكوفة والأديرة القائمة حولها في الحيرة،  
فنازعته نفسه أن يشرب في أحد الأديرة ويتزود من خمرها ما يكفيه حتى العودة، فقال صاحبه:  
حط أنقالنا، وسار الناس وأقاما، يقول:

خرجنا نبتغي مك  
ة حجاجاً وزوارا  
فلما شارف الحير  
ة حادي جملي حاراً  
فقلت: احطط بها رحلي  
ولا تحفل بمن سارا  
فقضينا لبانات  
لنا كانت وأوطارا  
وما ظنك بالحلفا  
ء إن أشعلتها نارا

ويقال إنه تغير عقل أبي على البصير قبل موته بقليل، وكان يثوب إليه عقله، فيأسى على  
نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة، وفي ذلك يقول:

خبا مصباح عقل أبي علي  
وكانت تستضيء به العقول  
إذا الإنسان مات الفهم منه  
فإن الموت بالباقي قليل

(١) الخلس: المختلس .

(٢) أنبست: همس بكلامه .

ولعل في كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذقه حقاً وأنه كان خصب الذهن. وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجاباً وبشعره استحساناً.

### أحمد<sup>(١)</sup> بن أبي طاهر

اسم أبي طاهر طيفور، وأحمد ابنه رزق به في بغداد لسنة ٢٠٤، وأصل الأسرة من مرو، ويقال إنها من سلالة ملوك خراسان. أخذ عن علماء بغداد، حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم في بعض الكتاتيب، ثم ترك التعليم واحترف الوراقه، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له، وسرعان ما تحول إلى مؤرخ كبير، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد في أخبار الخلفاء والأمراء وأيامهم، وهو أحد المصادر الأساسية التي اعتمد عليها الطبري في تأليف كتابه تاريخ الرسل والملوك: أهم مرجع تاريخي للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع الهجري. وله بجانب ذلك كتاب المنثور والمنظوم الذي يشتمل على أبرع الرسائل المدونة في العصر. وله كتاب فضائل الورد على النرجس وكأنه صنعه رداً على ابن الرومي وأمثاله ممن كانوا يفضلون النرجس على الورد. وكان يتشيع، ولكن ليس لدينا من شعره الشيعي سوى القصيدة التي أشرنا إليها في غير هذا الموضوع والتي رثى بها يحيى بن عمر الطالبي المقتول بالكوفة في زمن المستعين. ويبدو أنه كان إمامياً يأخذ بالتقية، ولا يجد بأساً في مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم" وفتحوا له جميعاً أبوابهم. وربما كان من أهم الأسباب في فتحها كتابه السالف "تاريخ بغداد" الذي أرخ فيه للدولة وخلفائها. وفتح له كتاب المنثور والمنظم أبواب الأدباء لا في بغداد وحدها، بل أيضاً في سامراء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة. وبجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعاً، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه "كان مؤدب كتاب عامياً ثم تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي ببغداد، وليس فيمن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفاً منه ولا أبلد علماً ولا ألحن، قال: ولقد أشدني شعراً يعرضه علي في إسحق بن أيوب لحن في بضعة عشر موضعاً منه وكذا قال لي البحتري فيه". وشهادة البحتري فيه مردودة، لأنهما كان يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه، ونفس أبي طاهر - كما في كتاب الموشح للمرزباني - يخص البحتري باللحن في شعره. وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو. وليس في شعره الذي بين أيدينا ما يصور هذا اللحن، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة، فالخطيب البغدادي - ومثله ياقوت - يقولان: "كأن أحد البلغاء الشعراء الرواة". وشعره

(١) أنظر في أخبار أحمد بن أبي طاهر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ ومروج الذهب ٦٤/٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد ٢١١/٤ ومعجم الأدباء ٨٧/٣ وكتاب الزهرة لابن داود (أنظر الفهرس) وديوان المعاني ٤٨/١ ، ٩٤ والموشح للمرزباني ص ٣٥١.

يشهد ببلاغته، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به ويشعره. وكان يغدو به ويروح على الوزراء، فيسبغون عليه جوائزهم من مثل قوله في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز وأوائل الربيع:

أبا الصقر لا زالت من الله نعمة	تجددها الأيام عندك والدهر
ولا زالت الأعياد تمضي وتتقضي	وتبقى لنا أيامك الغرر الزهر
فإنك للدنيا جمال وزينة	وإنك للأحرار زخر هو الذخر
رأيت الهدايا كلها دون قدركم	وليس بشيء عند مقداركم قدر
فأهديت من حلي المديح جواهرًا	مفصلة يزهي بها النظم والنثر

وكانوا يتقدمون للوزراء وعليه القوم في أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين، ورأى ابن أبي طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر واللآلئ. والأبيات قوية جزلة مصقولة، وتدل على أن يد شاعر صناع هي التي كتبتها وصاغتها هذه الصياغة المتينة. وأروع من هذه القصيدة قصيدته في أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد في حكم بغداد، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢، وهي تلتقي بقصيدة تروي لابن الرومي سبق أن أنشدنا منها في ٣١٠ بعض أبيات. ولعل القصيدتين اختلطتا في أذهان الرواة؛ ومن قصيدة ابن أبي طاهر في مديح أبي أحمد كما جاءت عند بعض الرواة:

من لم يكن حذراً من حد صولته	لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر
حلو إذا أنت لم تبعث مرارته	فإن أمر فحلو عنده الصبر
سهل الخلائق إلا أنه خشن	لين المهزة إلا أنه حجر
إذا الرجال دجت آراوهم وعموا	بالأمر رد إليه الرأي والنظر
الجود منه عيان لا ارتياب به	إذ جود كل جواد عنده خبر

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم: لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر. وهي أبيات - إن صح أنها لابن أبي طاهر - تدل على بصر بالشعر وروعة فنونه البديعية، وله رسالة في سرقات البحثري تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربي على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والمنثور. وقد مضى يحكم في القصيدة التقسيم كما في الأبيات الأربعة الأولى، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعاني والألفاظ على نحو ما يتضح في الأبيات الأربعة الثانية. وكان يحكم - بجانب

المدیح- الهجاء اللاذع الذي يوسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله في أبي العيناء  
الضريير نديم المتوكل والخلفاء ومضحكهم بإجاباته ونوادره:

كنا نخاف من الزما ن عليك إذ عمى البصر

لم ندر أنك بالعمى تغني ويفتقر البشر

وكان يتعرض أحياناً للمبرد، فيخشى معرفة لسانه، ويقال إنه استقبله في يوم صيف شديد  
الحرارة فأكرمه وبالغ في إكرامه، فأطعمه غذاء طيباً، وسقاه بارداً، وأخذ يباسطه في الحديث.  
مؤملاً أن يمتدحه ببعض شعره، وإذا هو ينشده:

ويم كحر الشوق في صدر عائق على أنه منه أحر وأرمد

ظلت به عند المبرد قائلاً فما زلت في ألفاظه أتبرد<sup>(١)</sup>

فقال له المبرد: قد كان يسعك إذا لم تحمد أن لا تدم، ومالك عندي جزاء إلا أن تغرب عن  
عيني. فتركه وهو يضحك من أثر دعابته في نفس المبرد شيخ العربية لعصره. وأنشد له ابن  
داود طائفة كبيرة من غزلياته، من مثل قوله:

حبيبي حبيب يكتم الناس أنه لنا- حين ترمينا العيون- حبيب

يباعدني في الملتقى وفؤاده - وإن هو أبدى لي البعاد- قريب

ويعرض عني الهوى منه مقبل إذا خاف عيناً أو أشار رقيب

فتخرس منا ألسن حين نلتقي وتتطق منا أعين وقلوب

فهما يتناكران أمام الناس، وكل منهما شديد الكلف والولع، يتجرع غصص الهوى وآلامه، ولا  
يستطيع البوح بما في ضميره، وهما لذلك يصطنعان التحفظ والاحتشام، وقلوبهما تحترق وجداً،  
وقد خرست منهما الألسنة ونطقت العيون بمكنون الضمير. وهو مع ذلك يكثر من الاختلاف إلى  
دارها ومجلس مولاها وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون، يقول:

إذا ما التقينا والوشاة بمجلس فليس لنا رسل سوى الطرف بالطرف

فإن غفل الواشون فزت بنظرة وإن نظروا نحوي نظرت إلى السقف

فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة في الحين بعد الحين، حتى لا يفتضح أمرهما  
للواشين ويجعلهم يقفون على حبه للمرأة وحباها له وأنها لا تفرط فيه، بل شديدة الحرص عليه.

(١) قائلاً: مستريحاً وقت القيلولة ؛ وهي نصف النهار .

ومع ذلك يجري بينهما حديث صامت لا أول له ولا آخر عن عذابهما في الحب وما يصطليان من ناره، على الرغم من الرقباء والوشاة، يقول:

عرفت بالسلام عين الرقيب      وأشارت بلحظ طرف مريب  
وشكت لوعة النوى بجفون      أعربت عن ضمير قلب كئيب  
رب طرف يكون أفصح من لف      ظ وأبدى لمضمرات القلوب

فهي تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب، وتشكو لوعة النوى وحرقة الحب بعيونها، واصلة نظرها الشزر إلى الرقيب بنظرها اللين إليه معربة عن ضميرها وما يخفى في صدورهما من الحب له والكلف به. وهو يحدثها بنفس اللغة، فيفهم قلبها عن قلبه وضميرها عن ضميره، وتبادلته بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة، يقول:

ألاحظها خوف لمراقب لحظة      فأشكو بطرفي ما بقلبي من الوجد  
فتفهمه عن لحظ عيني بقلبيها      فتومي بطرف العين أنى على العهد

فهما يتكلمان بلغة الطرف، لغة يصمت فيها اللسان، وتتطق القلوب بما تضمن من الوجد ولوعاته، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحظان، وكأنما لا يتكلمان بتلك اللغة الصامتة الفصيحة فقط بل يتراسلان بها ويتكاتبان مكاتبات حارة، يقول:

كتبت إلى الحبيب بكسر عيني      كتاباً ليس يقرؤه سواه  
فأخبروني تورده وجنتيه      وكسر جفونه أن قد قرأه

ولعل في كثرة رسوم ابن أبي طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حس من طرف وثناء خواطره وأفكاره من طرف آخر، وفي كثير من هذه الرسوم براعة في التصوير كما نرى في البيت الأخير، ومن بديع تصويره قوله في إحدى المحجبات اللائي شغف بهن:

حجاب فإن تبدو فلدمع جولة      يكون له من دون رؤيتها سترًا

فهو دائماً منها في حجابين، حجاب حين لا يلقاها. وحجاب من دموعه حين يلقاها، وكأنها محجبة دائماً، وراء أستار من الحجاب صفيقة وأستار أخرى رقيقة من الدموع الغزار. ويحدثنا ياقوت نقلاً عن أحد الرواة أنه كان يلم ببعض الأديرة أحياناً في طريقه إلى سامراء أو بعد رجوعه منها، وينشد له خمرية، ويبدو أن الخمر لم يتمكن من متاعه إلا في بعض أحوال عارضة. وما زال يعني بالتصنيف ونظم الشعر حتى توفي سنة ٢٨٠ للهجرة.

## ابن (١) دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، من أزد عمان، كانت أسرته على شيء من اليسار، وقد استوطن أبوه البصرة، وفيها ولد له سنة ٢٢٣ وعني عمه الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بحلقات العلماء، وكانت له ذاكر عجيبة لا يكدر شيء يسمعه يفلت منها، مما أعده لن يكون من كبار اللغويين في عصره. وقد أكب على محاضرات الرياشي وأبي عثمان الأشناداني وأبي حاتم السجستاني وغيرهم من علماء البصرة، فأخذ كل ما عندهم. ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكلوا بأهلها تنكياً شديداً فر مع عمه الحسين إلى عمان وطن قبيلته الأزد، وظل بها اثني عشر عاماً إلى أن قضى الموفق على ثورة الزنج قضاء نهائياً، وحينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام. ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال والي الأهواز وفارس لتأديب ابنه أبي العباس إسماعيل وتنقيفه. ويلبي الدعوة، ويرحب به الوالي ترحيباً عظيماً، ويقلده ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال. وينظم في الوالي وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة، التي عرضنا لها في حديثنا عن الشعر التعليمي وتطير شهرتها وتتكاثر شروحيها، وتطبع في عصرنا بشرح التبريزي وبشروح أخرى وتكثر تخميساتها على مر القرون. وفي أثناء عمله عند ابن ميكال ألف الجمهرة لابنه إسماعيل، وهي معجم لغوي بدأ فيه على طريقة معجم العين المنسوب إلى الخليل الثنائي ثم بالثلاثي ثم بالرباعي ثم بملحقه ثم بالخماسي والسداسي وملحقاتهما، وجمع النوادر في باب منفرد. أملاها أولاً في فارس، ثم أملاها في البصرة ثم في بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة. وكان من أهم ما ألفه لإسماعيل، كي يحسن العربية، كتاب الأربعين حديثاً، قص فيه حكايات عربية قديمة تقوم على الحب غالباً كما تقوم على التاريخ، ويقول الحصري عن هذه الأحاديث إنها هي التي ألهمت بديع الزمان مقاماته<sup>(٢)</sup>. ويبدو أنه ألف عند ابني ميكال كثيراً من مصنفاته، ومما نشر له منها في عصرنا كتاب الاشتقاق وكتب السرح واللجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على ألغاز لغوية. وما زال يعيش في رحاب ابني ميكال حتى عزلا عن

(١) أنظر في ترجمة ابن دريد وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٢٥ وتاريخ بغداد ١٩٥/٢ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢٧/١٨ ونزهة الألباء والفهرست ص ٩٧ وشذرات الذهب ٢٨٩/٢ ولسان الميزان ١٣٢/٥ وتكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ٧٦ والوافي بالوفيات للصفدي ٣٣٨/٢ ومرج الذهب للمسعودي ٢٢٩/٤ وطبقات الشافعية ١٣٨/٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٣ روضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع ديوانه في القاهرة.

(٢) أنظر زهر الآداب ٣٠٧/١ وكتابتنا الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف - الطبعة

فارس، فانتقل إلى مسقط رأسه، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبباً، فاستقبلته بغداد استقبلاً حافلاً، وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً على أن توفي سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عاماً. وأهم مدائحه وأشعاره مقصورته التي ذكرناها آنفاً، وقد حللناها في حديثنا عن الشعر التعليمي، ونقف منها الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبي العباس إسماعيل، وفيهما يقول:

تلافيا العيش الذي رنقه	صرف الزمان فاستساغ وصفا <sup>(١)</sup>
وأجريا ماء الحيايى رغداً	فاهتز غصني بعد ما كان ذوي <sup>(٢)</sup>
إن ابن ميكال الأمير انتاشني	من بعد ما قد كنت كالشيء اللقا <sup>(٣)</sup>
ومد ضبعي أبو العباس من	بعد انقباض الذرع والباع الوزي <sup>(٤)</sup>
ذاك الذي ما زال يسمو للعلا	بفعله حتى علا فوق العلا
لو كان يرقى أحد بجوده	ومجده إلى السماء لارتقى
ما إن أتى بحر نداء معتف	على أوارى علم إلا ارتوى <sup>(٥)</sup>
نفسى الفداء لأميري، ومن	تحت السماء لأميري الفدا

وطبيعي أن يعني ابن دريد في هذا المديح بإدماج شيء فيه من الألفاظ الغريبة، لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متناً لغوياً، وتحققت له إرداته، لا بما وضع فيها من ألفاظ غريبة فحسب، بل أيضاً بما حشد فيها من الألفاظ المقصورة. ومع ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة، فاختر لها أسلوباً وسطاً بين الإغراب والسهولة، كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضوع. وهذه الأبيات نفسها تصور هذا الملك، فهي لا تتعمق في الإغراب، بل تظل فيها نضرة الشعر وجماله. وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها في الغريب وألفاظه من مثل قوله في أبي أحمد حجر الجومي أحمد رجالات فارس النابهين:

حجر بن أحمد فارغ الشرف الذي خضعت لعزته طلي الأعناق<sup>(١)</sup>

(١) رنقة: كدره .

(٢) الحيا: الغيث والخصب .

(٣) انتاشني: تناولني . واللقا: المرمى في عرض الطريق لا يعبأ به .

(٤) الضبع: وسط العضد . ومد ضبعيه بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض الذرع والباع كناية عن ضيق الحال .

(٥) الندى: الكرم . المعتقى: طالب النوال والأواري: النار . العلم: الجبل .

لكنهن مفاتيح الأرزاق

للبد لم يطبع برين محاق<sup>(٢)</sup>

وانظر إلى النور الذي لو أنه  
وكيف يجيد فن الرثاء، وله مرثية بديعة في عمه الحسين بن دريد الذي تعهد تربيته، ومن  
خير مرثيه مرثية في محمد بن جرير الطبري علم الدراسات الدينية والكتابات التاريخية في  
عصره، وفيها يقول:

بل أتلفت علماً للدين منصوباً

والآن أصبح بالتقدير مقطوباً<sup>(٣)</sup>

للعلم نوراً وللتقوى محاريباً

إن المنية لم تتلف به رجلاً

كان الزمان به تصفو شاربه

كلا وأيامه الغر التي جعلت

وتنسب له قصيدة في ذكرى الرسول عليه السلام نشك في نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى  
إنما ذاعت وشاعت في عصر متأخر. وله قصيدة طويلة في رثاء الإمام الشافعي، أو بعبارة أدق  
في بيان مكانته العلمية الخطيرة، وفيها يقول:

ضياء - إذا ما أظلم الخطب - صادع

سما منه نور في دجاهن ساطع

وليس لما يعليه ذو العرض واضع

لرأي ابن إدريس ابن عم محمد

إذا المعضلات المشكلات تشابهت

أبى الله إلا رفعه وعلوه

وهي قصيدة بديعة. وبحق يقول المسعودي إنه كان يذهب في الشعر كل مذهب، فطوراً يجزل  
وطوراً يرق، وطوراً يصب بدويًا متعمقًا في الفلوات وفي وصف الإبل والخيل، وطوراً يصبح  
حضرياً يصف الرياض والزهور، ومن قوله في النرجس:

ولا يمحو محاسنها السهاد

صياغة من يدين له العباد

ضياء مثله لا يستفاد

عيون ما يلم بها الرقاد

لها حدق من الذهب المصفى

وأجفان من الدر استفادت

ومن تمام هذا الإحساس الحضاري عنده أن نجده يتغزل أحياناً غزلاً رقيقاً، من مثل قوله  
واصفاً مدى فتنة الناس بمحبوبته، حتى كأنهم جميعاً شركاء له في الحب وضناه:

(١) طلي: جمع طلية، وهي أصل العنق.

(٢) الرين: الأذى. يطبع: يدنس.

(٣) مقطوباً: ممزوجاً.

أعاد من أجل لا من ضني

وسائر العواد أشراكي

ولست أشكوك إلى عائد

أخاف أن أشكو إلى شاكلي

فالناس يزورونه من ضناه في حب صاحبتة لا من ضنا مرض ألم به، وهو لا يشكو لهم من عذابه في حبها ولا من وصبه فيه، لأنه يراهم جميعاً مثله، يعانون ما يعانیه من لوعات الحب وآلامه. وكان يتورط في الخمر وإثمها، كما كان يتعلق بالغناء وآلاته، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه في شيخوخته إنه كان يستحي مما يرى من الشراب والعيان المعلقة، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده:

وحمرء قبل المزج صفراء بعده

أنت بين ثوبي نرجس وشقائق

حكمت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا

عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

ويقال إنه عرض له في أواخر عمره فالج (شلل) وسقى الدرياق فبرئ، ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته. ثم مرض به ثانية، وظل سنتين توفي في نهايتهما، وتصادف أن كانت وفاته في نفس اليوم الذي توفي فيه أبو هاشم الجبائي المتكلم المعتزلي المشهور، ودفنا معاً ببغداد في مقبرة الخيزران.

## شعراء الهجاء

مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن شعر العصبية القبلية خبت ناره فيه وخبت معه نار النقائص، وحل محله شعر شعوبي أحياناً، ولكن الكثرة الكثيرة كانت هجاء شخصياً يتعرض للأعراض مزرياً بالمهجوين محقراً لهم ومهوناً. ونستطيع أن نطرد هذا الحكم في العصر العباسي الثاني، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبي خبت ناره بدوره. ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل، فلما ضعف شأنهم في العصر وحل لترك محلهم في السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفت حدة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً، وحتى هذا النادر لم تحفظ به المصادر إلا قليلاً جداً، لانه لم يكن لشعراء نابيين إنما كان لشعراء مغمورين قلما عنى به من أحد مثل محمد بن أبان الذي كان يكثر من الافتخار بالعجم<sup>(١)</sup>، ولم يبق من افتخاره شيء. وبذلك كان الهجاء الشخصي هو اللون العام في العصر وظل معه ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بذاءة، لن نقف عندها إنما نقف عند الهجاء غير البذيء، وكانت نيرانه مضطربة طوال العصر، فالشعراء يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو قصر في عطائهم، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابيه أو عالم لقاء غير حميد. وكثيراً ما كانت تجرهم المنافسة إلى الدخول في معارك هجاء حامية الوطيس. ومر بنا في غير هذا الموضوع، ما قيل عن البحتري من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه، وبالغ بعض القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء<sup>(٢)</sup>. وإذا صح هذا عن البحتري الذي كانت تفتح له الأبواب الموصدة، وكان يمشي - بفضل جوائزه الكثيرة - في موكب من عبيده فضلاً عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا في الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه. ومر في حديثنا عن ابن الرومي إكثاره من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلي الساخر يكبر فيه عيوب المهجوين الجسدية والمعنوية. وابن الرومي والبحتري أكبر شعراء العصر، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يسهمون في هذا الفن، وكثيراً ما كانوا يخصون به الوزراء حين يجرمونهم الجائزة، ولن ينفع الوزير عندهم أن يكون

(١) معجم الشعراء ص ٣٧٩.

(٢) الموشح للمرزباني ص ٣٣٦.

ممدحاً، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلط عليه الشاعر سهام هجائه، من مثل قول دندن في عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكاتبه ابن يزداد:

وإن ابن يزداد لحول حول  
ولكنه يقرا (إذا الشمس كورت)  
فقل لعبيد الله أحبيبت دولتي  
مكاسير زمني (عطلت) فتحيرت  
وأنت- إذا ميزت- أبلد منهم  
فصوتكم: حي المنازل أقفرت

ومجيئه بالآية القرآنية وكلمة (عطلت) الواردتين في سورة التكوير يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة، لأن السورة في وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور. وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم<sup>(١)</sup>:

إن زماناً أنت مستوزر  
فيه زمان عسر أنكد  
يذمك الناس جميعاً فما  
يلقاك منهم أحد يحمد

ولما انتكست الوزارة في عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد في الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تولى الوزارة مرتين وثلاثاً، وكل وزير يصادر الذي قبله ويعمل كل ما في وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم في هجاء الخاقاني الوزير<sup>(٢)</sup>:

للدواوين - مذ وليت - عويل  
ولمال الخراج سقم طويل  
يتلقى الخطوب حين ألت  
منك رأى غث وعقل ضئيل  
إن سمنت من الخيانة والجو  
ر فللارتفاع جسم نحيل

وكان الخاقاني معروفاً بسوء السيرة والتدبير، وأخذ الرشوة ممن يوليهم الأعمال، ولذلك كثرت في أيامه الولاية والعزل، وكان الدولة أصبحت دولة لصوص وقطاع طرق. ومن هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق ابن البريدي الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني من قصيدة طويلة<sup>(٣)</sup>:

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧.

(٢) الفخري ص ١٩٨.

(٣) تكلمة تاريخ الطبري للهمداني ص ١١٣.

يا سماء اسقطي ويا أرض ميدي  
هد ركن الإسلام وانتهك المل  
قد تولى الوزارة ابن البريدي  
ك ومحت<sup>(١)</sup> آثاره فهو مودي  
وقليل أن تذرفي وتجوذي  
فاستهلي يا عين بالدمع سحا

ومر بنا أنفأ أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجي، وممن تعرضوا له بالهجاء كثيراً مروان بن أبي الجنوب شاعر المتوكل، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التي كان يخصه بها المتوكل، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة، على نحو ما حدث بينه وبين علي بن الجهم، وكان أكثر توقراً منه في هجائه، إذ لم يكن يسف فيه إلى ذكر الأعراض. ويتهاجى مع أبي نعامه الدقيقي، ويكويه بمثل قوله في نعت شعره<sup>(٢)</sup>:

رأينا البرد مشتداً  
فساءلنا عن القصة  
فقالوا منشد ينشد  
د شعر ابن أبي حفصه

وكان أبو نعامه كما مر بنا شيعياً وكان خبيث اللسان، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة في أيام المتوكل ورماهم بأشنع القبائح، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية. وكانوا ربما يهجون بالترندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجماز في الجاحظ<sup>(٣)</sup>:

يا فتى نفسه إلى  
لك في الفضل والتزه  
ملة الكفر تائقه  
د والنسك سابقه  
يا دعي الزنادقة  
فدع الكفر جانباً

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد المحامين عن الإسلام في عصره المدافعين المناضلين، ولكنه الهجاء يصم الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتاناً. ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر في محمد بن يزيد المبرد العالم النحوي المشهور<sup>(٤)</sup>:

سألنا عن ثمالة كل حي  
فقلت محمد بن يزيد منهم  
فقال القائلون ومن ثماله  
فقالوا زدتنا بهم جهاله

(١) محت: درست .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢.

(٣) معجم الشعراء ص ٣٧٥.

(٤) ديوان المعاني ١/١٧٨.

وثمالة هي عشيرة المبرد، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهويناً بعيداً للمبرد وأنه حامل الذكر، وكان قد طبق آفاق البلاد العربية شهرة في عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه. وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره في كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه، وكان لها قديماً مشاركة في رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح، وكذلك كان لها مشاركة في الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة في الهجاء من مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف في أبي الشبل الشاعر الماجن، تهون من رجولته طاعنة له في الصميم<sup>(١)</sup>:

من نعجة تكني أبا الشبل	ما ينقضي عجبي ولا فكري
ووصفت ذا النقصان بالفضل	لما اكتنيت لنا أبا الشبل
وترى السماء تذوب كالمهل	كادت تميد الأرض من جزع

وهي تصوره متمرداً على حقيقته، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال، فالأرض تميد جزعاً، وكأن يوم القيامة حل موعده، فالسما تذبذب كالمهل أو الزيت المغلي. ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار الهجائيين في العصر هم الصيمري والحمدوني وابن بسام.

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥.

الصيمري<sup>(١)</sup>

هو أبو العنيس محمد بن اسحق، أصله من الكوفة، وتولى القضاء بالصيمرة فنسب إليها، وهي نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع، قدم سامراء في عصر المتوكل ففر به منه واتخذة نديماً له، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتقدير، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف، إذ روي له ابن النديم في الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة، ككتب الأطلعة وكتاب الجوابات المسكنة. وكان عالماً بالنجوم، وله فيها كتابان. ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم، فقط، فقد كان يضيف إليهما الشعر، ويقولون إنه كان خبيث اللسان، هاجي أكثر شعراء زمانه، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله في إبراهيم بن المدبر، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الدواوين في سامراء وبغداد:

كب بالأعنة نحو بابك	أسل الذي عطف الموا
ز على وقوفي في رحابك	وأذل موقفي العزير
ما لم يكن لك في حسابك	وأراك نفسك مالكا
غصص المنية من حجابك	ألا يطيل تجرعي

وله خبر طويل مع البحري هجاه فيه وسخر منه سخرية مرة، إذ حدث الرواة أنه كان من عادة البحري إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور في مشيه مرة متقدماً ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكبيه مرة أخرى ويشير بكفه ويقف عند كل بيت ويقول: أحسنت والله، ثم يقبل على المتوكل ومن في مجلسه فيقول: مالكم لا تقولون أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله. وكان المتوكل يضجر من ذلك، فأقبل على الصيمري والبحري ينشده مدحته فيه:

عن أي ثغر تبتسم	وبأي طرف تحتكم
يا بحري حذار وي	لك من قضاقضة ضغم <sup>(٢)</sup>
فبأي عرض تعنصم	وبهتكه جف القلم

(١) أنظر في الصيمري وأخباره وأشعاره كتاب الأغاني (طبعة الساسي) ١٧٣/١٨ والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ٢٣٨/١ ومروج الذهب ٩/٤ ومعجم الأدباء ٨/١٧ والنجوم الزاهرة ٧٤/٣ والوافي بالوفيات ١٩١/٢.

(٢) القضاقضة: الأسد . ضغم: مفترس .

ولقد أسلت بوالدي  
يا بن الثقيلة والتقيد  
ك من الهجا سيل العرم  
ل على قلوب ذوي النعم

ومضى يفحش في القصيدة ويقذع فيها إقذاعاً قبيحاً. ولا ريب في أن نظمه قصيدة طويلة بهذا النمط على البديهة يدل على شاعرية قوية. وظل خفيفاً على قلوب الخلفاء. يسلكونه في ندمائهم حتى عصر المعتمد، أو بعبارة أخرى حتى توفي في عصر هذا الخليفة لسنة ٢٧٥. وله يهجو طباخه المسمى صالحاً:

يا طيب أيامي بمعشوق  
إذا طلبت الخبز من فارس  
ونحن في بعد من السوق  
ينفخ لي صالح بالبوق

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين، ومما احتفظت له المصادر به قطعة في مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل، وهي تطرد على هذا النمط:

زارني بدر على غصن  
خلته لما أتى حلماً  
قابلاً وصلى يقبلني  
وهو روي رد في بدني  
إن لي عن مثله شغلا  
بمقال الشعر في الحسن  
وأبيه مخلد فيه  
قد لبسنا سابغ المنز  
فاضل في العلم واللسن  
كاتب قل النظير له

وشعره يسيل غذوبة، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالاً، فلا تكلف فيه ولا تعمل، ومع ذلك لا نجد فيه هلالة في النسيج، إنما نجد المتانة التي تجعله سائغاً في الآذان والأسماع. وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله:

كم مريض قد عاش من بعد يأس  
قد يصاد القطا فينجو سليماً  
بعد موت الطبيب والعواد  
ويحل القضاء بالصيد

وهي فكرة دقيقة، فقد يعيش المرض الميئوس من شفائه المبكي عليه من محبيه وأودائه، ويموت الطبيب الصحيح المعافي. وبالمثل قد يصاد طائر، ويخطف الموت صائده، بينما ترد له حريته ويعود إلى رفرفته في الهواء طليقاً.

## الحمدوني<sup>(١)</sup>

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدوني، جده حمدويه صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذي كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكمتهم، ونجد أبنائه وأحفاده في أواخر العصر العباسي الأول وفي هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم. وعرف إبراهيم أبو إسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل، وكان ابنه أحمد على غراره نديماً للمتوكل ثم للمستعين. ولا نشك في أن إسماعيل كان على شاكلة أخيه وأبيه ينادم الخلفاء، وكل شيء فيه كان يعده لهذه المنادمة، غداً كان فكهاً خفيف الروح، وكان شاعراً، وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة، واتجه بشعره إلى الهجاء، ولكن أي هجاء؟ الهجاء الذي يلسع لسع الإبر من مثل قوله في سعيد بن حميد حين ولي رياضة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ ساخراً منه ومن ملابسه الديوانية الجديدة:

لبس السيف سعيد بعد ما      عاش ذا طمرين لا نوبة له

إن لله لآيات وذا      آية لله فينا منزله

فقد جرده من كل استحقاق للوظيفة وزيتها والسيف الذي كان يتقلده من يشغلها لعصره، فهو خلو من كل كفاءة، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه. وكان سعيد ممن أنقنوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأواً بعيداً. ومن هجائه اللاذع قوله في بغيض:

سألتك بالله إلا صدقت      وعلمي بأنك لا تصدق

أتبغض نفسك من بغضها      وإلا فأنت إذن أحرق

فهو خليق بأن يشترك مع مبغضيه في بغض نفسه، وكأنما أصبح تمثالاً للبغض الكريه، لا عند الناس فحسب، بل أهم من ذلك عند نفسه. ويا ويل من كان يسلط عليه سهام هجائه، فإنه كان ما ينى يرسلها عليه. وحدث أن ممدوحه أحمد بن حرب المهلبى الذي طالما دبح فيه مدائحه وهب له طيلساناً أخضر لم يرضه، فمضى ينظم في طيلساناً مقطوعات، وكلما فرغ من مقطوعة نظم مقطوعة جديدة حتى أكملها خمسين مقطوعة طارت على السنة الأدباء والناس في عصره كل مطار منها:

يا بن حرب كسوتني طيلساناً      مل من صحبة الزمان وصدا

(١) أنظر في الحمدوني وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ وفوات الوفيات ٢٤/١ والأغاني ١٢/١\* وترجمة أخيه أحمد في معجم الأدباء ٢/٢١٧ وتاريخ الطبري ٩/٢٦٤ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) ٢/٢٩٨ و ٣/٢٤، و ٥/٢٤٣ و ٧/٢٨٧ وديوان المعاني المعافي ١/٢٧٨ وزهر الآداب ٢٣٣ م وما بعدها.

أو تتحنحت فيه ينقد قدأ

إن تنفست فيه ينشق شفا

لو بعثناه وحده لتهدى

طال ترداده إلى الرفو حتى

وأذع الأبيات البيت الأخير، بل كلها لاذعة، فالطيلسان أكل الدهر عليه وشرب، حتى لكأنما مل صحبة الدهر، فقد آن له أن يبلي ويستريح، وإن أي حركة فيه لتمزقة إرباً، وكل يوم ينخرق فيه خرق ويذهب به إلى دكان الرفاء، حتى لو بعث به إليه لعرف الطريق من طول ترداد سيره فيه. وتتوع هجاؤه لهذا الطيلسان القديم البالي، فهو تارة يضمنه بعض ألفاظ قرآنية من مثل قوله:

خلعة في يوم نحس مستمر

طيلسان لابن حرب جاني

طيرته كالجراد المنتشر

فإذا ما الريح هبت نحوه

وقوله:

فانظر إليه فإنه إحدى الكبر

فيما كسانيه ابن حرب معتبر

نرفوه حتى أسود من صدأ الإبر

قد كان أبيض ثم ما زلنا به

وتتوالى ألفاظ القرآن في الأبيات كما هو واضح في ألفاظ: (في يوم نحس مستمر) و (كالجراد المنتشر) و (إحدى الكبر)، وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية في مكانها السوي. وتارة كان يضمن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله:

يزيد المرء ذا الضعة اتضاعاً

وهبت لنا ابن حرب طيلساناً

لنوح في سفينته شراعاً

ولست اشك أن قد كان قدماً

جوانبه على بدني تداعي

وقد غنيت إذ أبصرت منه

ولا يك موقف منك الوداعاً

"قفي قبل التفرق يا ضباعاً

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعاً لسفينة نوح في أعتق الأزمنة، وصور نفسه ملتاعاً إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامي التي اشتعلت في صدره عند فراقه لصاحبه "ضباعاً". وقطع كثيرة كان يتغنى في نهايتها بأبيات على شاكلة بين القطامي تصور أساه، ودائماً يعرف كيف يختارها، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين في شعره سواء لأبيات الشعر أو الألفاظ والآيات القرآنية. ومر بنا في غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه شاة هزيلة فمضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة في تلك الشاة مصوراً هزالها ويؤسها، صانعاً نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة في الغزل والحب، من مثل قوله:

عنه وغنت والمدامع تسجم

مرت على علف فقامت لم تسر

متأخر عنه ولا متقدم

"وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي

والبيت الثاني من قطعة في الغزل مشهورة لأبي الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجاباً شديداً. وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتر عليه في الرزق، وله يشكو ضيق عيشه، بينما غيره موسع له في الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم:

فنحن من نظارة الدنيا

من كان في الدنيا له شارة

كأننا لفظ بلا معنى

نرمقها من كذب حسرة

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه في العقد الفريد نظمها معارضة للأمية تأبط شراً المشهورة، وفيها يتحدث عن حبه وفتوته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من مثل قوله:

ينتضيه الحزم حين يسئل

هو سيف غمده بردتاه

أنه بالبيد سمع أزل<sup>(١)</sup>

لا يشك السمع حين يراه

وألفاظه في القصيدة وقوافيه تلتقي مع قوافي تأبط شراً وألفاظه، وكأنما قصد على ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته وله في الغزل قطع تصور حبه ولوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه، وله في وصف طروق طيف الخيال في المنام قطعة جيدة يقول في تضاعيفها:

فاجتمعنا ونحن مفترقان

وصل الحلم بيننا بعد هجر

فطوت سرها عن الأبدان

وكان الأرواح خافت رقيباً

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته. ومن أكبر دلالة على ذلك القطع الكثيرة التي أنشدها في هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب، وكأنه كان يستمد من نبع لا ينضب رصيده.

(١) السمع: الذئب. الأزل: المتولد بين ذئب وضبع.

ابن بسام<sup>(١)</sup>

هو علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام، من بيت كتابة وأدب، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأزمة في أيام المعتصم وهو من ممدوحى، أبو تمام، بينما كان أبوه محمد من ممدوحى البحتري، ويقول المسعودي إنه كان مترفاً حسن الزي ظاهر المروءة مشغوفاً بالبناء، ويروي عن بعض معاصريه ما يصور بذخه في بناء داره وفي ثيابه وطعامه وشرايه. وكان قد تزوج أمامة بنت حمدون النديم، والحديث عن بني حمدون في المصادر مضطرب، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفاً، ومنها أنجب ابنه علياً، وقد عني بتربيته أبوه، حتى أصبح شاعراً، وحتى أصبح التأليف إحدى هواياته. ويروي له ابن النديم ومترجموه كتباً مختلفة عن عمر بن أبي ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء، ويذكرون له ديوان رسائل، مما يدل على أنه كان كاتباً كما كان شاعراً. ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء، وقد يكون لخاله الحمدوني أثر في ذلك. وكان شيعياً، وربما كان لتشيعة أثر في ذلك أيضاً، فقد كان الشيعة ناقلين على الدولة والناس انصرافهم عنهم، بل كانت نقيمتهم على الدولة أشد وأدهى، للزج بهم في السجون وتقتيلهم، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحاً له ضد الخلفاء والمجتمع ويبدو أن أباه كان مولياً للعباسيين، ولعل هذا هو السر في كثرة أهاجيه له، حتى عد في العققة الذين لا يبرون آراءهم بل يجحدون فضلهم، وله في أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكنى أبا جعفر:

ومثله لخيار الدور بناء

بني أبو جعفر داراً فشيدها

وفي جوانبها بؤس وضراء

فالجوع داخلها والذل خارجها

وكانت قصرًا عظيمًا يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغزلان والطيور البهيجة الألوان. ويتمادى في هجائه له حتى ليقول فيه وفي داره أيضاً:

سلط الله عليها الغرقا

شدت داراً خلتها مكرمة

وأرانيها صعيداً زلقاً<sup>(٢)</sup>

وأرانيك صريعاً وسطها

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة، فلا يشعر بأن له عليه ديناً إذ منحه الوجود وقام على تربيته، بل لكأنما جنى عليه جناية لا تغتفر، ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح

(١) أنظر في ابن بسام وأخباره وأشعاره الفهرست ص ٢٢٠ ومعجم الشعراء ص ١٥٤ وتاريخ بغداد ٦٣/٢ ومروج الذهب للمسعودي ٣٠٦/٤ وما بعدها وزهر الآداب ٨٧/٣ وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان المعاني ٢٣/٢ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة ١٨٩/٣.

(٢) صعيداً زلقاً: أرضاً ملساء.

أوضارها عن جسده إلا اللعنات يصبها على أبيه. ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتاب وكبار رجال الدولة غير هباب ولا وجل، بل لكأنما كان يبحث عن ينتقم منه وبطير به طيرة بطيئاً سقوطها. وكان من أوائل من تعرض لهم بالهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم في حروب الزنج والصفاء، ونوراه ينظم فيه وفي ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلها بقوله:

أيرجو الموفق نصر الإله      وأمر العباد إلى دانيه

ويأخذ في هجاء ولاته من مثل الطائي أمير البصرة واسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل، وصاعد بن مخلد وكان نصرانياً وأسلم واستوزره الموفق، ويصيح:

فخل الزمان لأوغاده      إلى لعنة الله والهافية

ويظله عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقي الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تحفر له حفيرة ويلقى فيها وتطم عليه، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه، إذ نراه يتعرض له بالهجاء، وتارة يقذف فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قوله في احتفاله بختان ابنه المقتدر:

انصرف الناس من ختان      يرعون من جوعهم خزامى<sup>(١)</sup>

فقلت لا تعجبوا لهذا      فهكذا تختن اليتامى

وهو يصفه بالخيل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائساً، حتى لكأنما هو ختان بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتقلاً عظيماً بختانهم.

ونراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد، وفيه يقول:

سجدنا للقرود رجاء دنيا      حوتها دوننا أيدي القرود

فما نالت أناملنا لشيء      عملناه سوى ذل السجود

وكان نصيب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً، تارة يصفه بخلط الرأي، وتارة يهدده بسوء المصير. ونراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم، مادحاً للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظاً وحنقاً إذ يقول:

قل لأبي القاسم المرجي      قابلك الدهر بالعجائب

مات ملك ابن وكان زيناً      وعاش ذو الشين والمعائب

(١) صعيداً زلقاً: أرضاً ملساء.

حياة هذا كموت هذا      فلست تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه في عمل وأن يبره ويصله حتى يكف عن هجائه، فولاه بريد الصيمرة وما والاها، وقيل بل ولاه بريد قنشرين والعواصم، وبقي في عمله إلى آخر أيام المعتضد، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفي رأى الاستغناء عنه، ولعله لذلك أكثر من هجائه، ومر بنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن نشاط الشعر، وفيه يقول:

تحمل أوزار البرية كلها      وزير بظلم العالمين يجاهر

واتخذ من شعره سياتاً يلهب بها ظهور ابن الفرات والخاقاني ويزيري المقتدر وله في الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وما كان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة في كل عمل يحققه لهم، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن فساد الحكم حينئذ. وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعابة، ومر بنا في حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفاً ثقله، ونرى ابن بسام يرد عليه بقوله على نفس طريقته:

فقدتكم يا قذاة في شراب      دخلت من الدناءة كل باب

وأثقل - حين تبدو - من رقيب      وأكذب - حين تتطق - من سراب

وأغدر للصديق من الليلي      وأنكى للقلوب من العتاب

وكان يناقض جحظة البرمكي كثيراً، وكان على غراره كثيرة الهجاء، وكان قبيح الخلقه تقتحمه العيون، وصور ذلك ابن بسام عابثاً به وبقبحه، إذ يشكره على إقباله عليه بدابته وانصرافه عنه بوجهه الذميم، يقول:

لجحظة المحسن عندي يد      أشكرها منه إلى المحشر

لما أراني وجه بردونه      وصانني عن وجه المنكر

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته. وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء مثل ابن مقلة ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس، وله في الزهد وفناء لحياة أبيات طريفة تجري على هذا النمط:

أقصرت عن طلب البطالة والصبأ      لما علاني للمضيب قناع

لله أيام الشباب ولهوه      لو أن أيام الشباب تباع

فدع الصبأ يا قلب واسل عن الهوى      ما فيك بعد مشيبك استمتاع

وانظر إلى الدنيا بعين مودع

فلقد دنا سفر وحن ودع

والحادثات موكلات بالفتى

والناس بعد الحادثات سماع

والأبيات تصوره قد وخطه الشيب وأخذ يفكر في غده ويستعد لمصيره، بعد تلك الرحلة الطويلة التي كان يجاهد فيها مجتمع بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣ للهجرة. ومن المؤكد أن أهاجيه تصور العصر في صورة أدق من تلك التي يصورها المديح، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة، بل كانت كدرة قاتمة، اختلفت فيها الموازين والقيم اختلالاً شديداً.